طَوقٌ فِي عُنُقِي

رِوَايَة لابتِسَام شَاكوش

اسم الكتاب	طوق في عنقي
تأليف	ابتسام شاكوش
الموضوع	الرواية
الطبعة	الأولى – 2020
الناشر	كتاب سراي–اسطنبول
القياس	20×14
ترقم دولي	978-605-06794-3-4

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

الطبعة الأولى – 2020

الناشر

KİTAP SARAYI
كتاب سراي

كتاب سراي – اسطنبول – الفاتح – جانب مسجد الخرقة الشريفة

Fatih/Istanbul ، 12 b، keçeciler cad،Hirka-i serif mahallesi

+905340558303 - sarayikitap@gmail.com

طَوْقٌ فِي عُنُقِي

رِوَايَة

لابتسام شاكوش

KİTAP SARAYI
كتاب سراي

سيرة ذاتيّة للمؤلفة

ابتسام إسماعيل شاكوش.

سوريا – اللاذقية – الحفة – قرية الجنكيل.

عضو اتحاد الكتاب العرب – جمعية القصة والرواية.

عضو في رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

عضو في اتحاد الكتاب السوريين الأحرار.

مؤلفاتها في مجال القصة القصيرة:

1- اشراقة أمل (وزارة الثقافة السورية) 1998.

2- الخروج من المجال المغناطيسي (مترجم الى اللغة الصينية) دار عكرمة 1998.

3- بعض من تخيلنا (مطبعة بسمة) 1999.

4- الشمس في كفي (دار علاء الدين – دمشق) 1999.

5- الحلم الأزرق (دار إنانا – دمشق) 2000.

6- انتظرني حتى أكبر (دار إنانا – دمشق) 2007.

7- كان حصانا (اتحاد الكتاب العرب- دمشق) 2009.

8- المقلوب (دار رواية- الرياض) 2012.

9- بين الخيام (دار نون- غازي عنتاب) 2016.

وفي الرواية:

1- الوجه المكسور (حاصلة على جائزة المزرعة لأفضل رواية في سورية) 2001.
2- يا حرام (حاصلة على جائزة دار الفكر) 2002.
3- اليتيمان (جائزة موقع لها أونلاين – السعودية) 2009.
4- ما زلت أبحث عن أبي (دار رواية في السعودية) 2010.
5- رواية أين رأسي (جائزة الألوكة الكبرى – السعودية) 2010.
6- قشرة البيضة (دار رواية) 2013.
7- وقع الخطى(دار cantaş yayınları -اسطنبول) 2016.
8- ابن المجرم (دار cantaş yayınları -اسطنبول) 2018.
9- أرملتان في مخيم اللاجئين (مخطوط).

وفي أدب الأطفال:

1- سلسلة أخلاقنا.
2- سلسلة صرت كبيراً.

للتواصل مع المؤلفة :

00905317049643 - chakoueh@hotmail.com

إهداء

إلى التقيّة النقيّة

إلى رمز تركيا ووجهها الجميل

إلى مريم

Meryem Bulanik

"طَوقٌ في عُنُقي"

رِوايَة

ابحثوا... قالها لنا جدي، اتبعت نصيحته وبحثت..!

هذا من كنت أبحث عنه، إنه هو..! أقسم أنه هو..! فرَّ من بين سطور روايتي ، هارباً من حزني وآلامي، سافر بعيداً، إلى الشاطئ الآخر من شريط سايكس وبيكو، رسم لحياته مساراً يتناقض مع الخطّ البياني للرواية التي بدأتُ خطوطها الأولى ولم أكملها بعد.. منعَتني الحيرة أثناء فرز المعلومات المتناقضة التي بين يدي، بأيّها أبدأ؟ وأين أنتهي؟.

إنه هو، برأسه المترع بالهمِّ والأسى، بعينيه الهاربتين من كلِّ العيون، ببحثه المستميت عن نفسه وما هو بواجدها، يرسل الطرف الحسير فينزلق به على كلِّ الموجودات ويعود كمن لم يرَ شيئاً، يودّع القمر الغارب، يرعى النجوم الآفلة، يبكي لتخلفه عن اللحاق بزورق راح شراعه يتماهى مع ضباب الأفق، يتمنّى لو تواتيه الشجاعة فيبحر بزورقه الصغير يشقُّ عباب اليمِّ بحثاً عن أهدافه، ثم يعود ليتساءل بمرارة: ما هي أهدافي؟ ضاع منه الحلم كما ضاع مني الهدف واليقين، فتركني أبحثُ لروايتي عن أحداث وشخصياتٍ مقنعة، والتجئ إلى شبكة الانترنت لائذة بحماها، طالبة نجدتها، تراوغني الشبكة وتعطيني من المعلومات ما لم أسألها عنه، فأغرق بين صفحات كتبت عن تاريخنا، لا أعلم في أي منها تكمن الحقيقة، ولا أين التزوير الهادف إلى إغراقنا في ظلمات الجهل والتبعية لعقود قادمة إضافية من السنوات.

طوقٌ في عنقي

وجدتُهُ على مقعدٍ خشبيٍّ طويل كمقاعد الحدائق، في ساحة تتوسَّط السوق الرئيسيَّ في مدينة "غازي عينتاب" التركية، يجلس مولياً ظهره السوق بكلِّ ما فيه من حركة ونشاط، بكلِّ بضائعه رخيصِها وثمينِها، على الطرف الآخر من مقعده تجلس امرأة، يبدو الصبر متحجراً على ملامحها، تحاول تسوية خمارها على رأسها، تفرده بيدها كاشفة عن جيدها، وخصلات من شعرها، لعلها تلفت انتباهه وتستثير غيرته، لكنه لا يكترث بها.

الساحة تنبسط أمامه، يتراكض فيها الصغار، ويدور في أرجائها الباعة يعرضون الكعك وعرانيس الذرة المسلوقة، كما يعرضون الألعاب الخفيفة والبالونات، يتزاحم الناس أمام موقف الباص على يمين الساحة، كما يتزاحمون على جانبي الإشارة الضوئية في اليسار، منتظرين احمرارها واخضرارها، ليدخلوا السوق أو يخرجوا منه، لكنه لا يرى شيئاً مما يحيط به، عيناه ساهمتان شاردتان، تحاولان إخفاء دمعتين تحجَّرتا في زاويتيهما، تبوحان بمكنون صدره.

دنوتُ منه، وقفتُ أتأمَّلُهُ بخشوعٍ، أسألُه عن سرِّ هذا الحزن، فما أجاب ولا رفع نظره إلى وجهي، دنوتُ أكثر، أخبرتُه همساً أني أبحثُ عنه منذ زمنٍ

موغلٍ في الوجع، موغلٍ في الغربة، يمتدُّ امتداد الخيط الناظم لشذرات من مذكرات جدّي، والملتفّ حول عنقي كأغلى الأمانات.

لم يجبني، لمست أصابع يده، سكبت في لمستي كل ما اختزنه صدري من الحنان والتوق، فما التفت، ولا انحدرت الدمعة العالقة في مؤقيه، مسحت بيدي على أصابعه النحاسية اللامعة، التمس بعض الدفء، كانت باردة كقطعة من الجليد.

غادرته ومضيت إلى السوق، كثيرة هي الأشياء التي أحتاجها، على يميني صيدلية، وأنا أحتاج لدواء يسكن آلامي المبرحة، التي أعانيها منذ خروجي من دياري، وحيدة ضائعة في موكب النازحين، ما أظنني سأجد دواء لها في كل صيدليات العالم، تجاوزتها ومشيت، متاجر الذهب تعرض في واجهاتها ما يستوقف أية امرأة ولو كانت خالية الوفاض مثلي، غضضت البصر عنها وتابعت السير، ملابس، أحذية، حقائب، ما عدت أذكر ما الذي أريده من السوق، عشق اسطوري ربط فجأة بيني وبين هذا الرجل الحزين، هزني بعنف، زلزل كل جوارحي، تركت السوق بعد خطوات قليلة ورجعت إليه، تلاشت رغبتي بالشراء، كسرت دربي ورجعت عائدة أتبع إشارة قلبي.

عجوزان تركيان يشاركانه مقعده، يفصلان بينه وبين امرأته، يتحدثان بلغة لا أعرف منها كلمة واحدة، تجاهلتهما ووقفت أمامه أناجيه، هممت بالجثو أمامه لتقبيل يديه، توقف العجوزان عن حديثهما وراحا يتأملانني بدهشة، شعرت بالخجل، سيقولان كما سيقول المارّة هنا: هذه المجنونة تكلّم تمثالاً حجرياً منصوباً في الساحة، هم محقون، لا يرون فيه سوى كوم من الحجر، وأنا رأيت فيه مالم يره غيري.

تركت المكان، بعدما وعدت التمثال الحزين بعودة سريعة، لكني أخلفت وعدي ولم أعد حتى شارف النهار على نهايته، جرفتني أمواج الحياة فغرقت في دوامتها حتى اصفرت الشمس معلنة انتهاء أعمال السوق، هذه مدينة تنام باكرا، وتغلق متاجرها مع غروب الشمس مثل أغلب المدن والقرى التركية، انفض الناس من هنا وأغلقت المتاجر والدكاكين، خلت الشوارع والساحات من الناس، أسرعت في طريق العودة وتوقفت وقفة أخرى أمام التمثال الحزين، كانت زقزقة العصافير العائدة للمبيت بين أغصان الشجرة التي تظلله تملأ الجو بصخبها، منعت عني مناجاته، وقفت منه على مبعدة، عاهدته على الإنصات لحكايته بكلّ جوارحي.

أخرجت هاتفي النقال من حقيبتي، التقطت له صورة، بل مجموعة من الصور، ثم غادرت الساحة، في غرفتي في الفندق القريب لم أجد ما أعمله،

رحت أتأمل الصورة وأحاول قراءة الحزن الساكن في تلك العينين الحجريتين، وأعيد عليه، بل على نفسي عبارة: ليس في الدنيا ما يستحق كل هذا الحزن، هو تمثال وضعوه ليزينوا به تلك الساحة مع تماثيل أخرى، لم يستوقفني منها سواه، ترى أي سر يحمله هذا التمثال؟

في الهنيهة الفاصلة بين اليقظة والنوم، رأيتني في بيت جدي، خرج جدي من صورته المعلقة على الجدار، دنا مني ثم دنا، حتى كاد وجهه يلامس وجهي ، ثم اختفى، انطفأ مثلما ينطفئ الضوء وتركني، صحوت على صوته يصرخ بي: ابحثي...

فتحت عيني، ما أشبه هذا الوجه بوجه جدي، وما أشبه جدي بالسلطان عبد الحميد، آخر السلاطين العثمانيين، ربما لا تتشابه وجوه الرجال الثلاثة في الملامح، بل بالحزن النبيل الساكن في العيون، تذكرت حديثا كان يدور بين جدي وأحد ضيوفه في أمسية غابرة، حديث كلاهما يعرفه، يتداولان فقرات الحكاية، يروي أحدهما جانبا من الأحداث فيتدخل الآخر ليرمي نثارا من التفاصيل النابضة بالحياة، بل بحب الحياة، حكايات ما تزال تدور من حولي، وتدور بي، لأكون فصلا من فصولها، وربما لأكون راوية لها، من يدري؟

قررت تدوين الحكاية، أمسكت بالقلم الذي اشتريته بالأمس من دكان العم سليم اصلان، كان العجائز الجالسون أمام الدكان يقصون حكاية جدي، بالتفاصيل ذاتها، وقفت أستمع لهم، تدخلت لأستفسر عن بعض التفاصيل، نهرني الشيخ عثمان قائلا: خذي أغراضك يا بنت وعودي لبيتك، البنات لا تقف أمام الدكاكين، هذا عيب.

ملأني الغيظ، لكني غادرتهم وأنا أتلمظ بقية الحكاية التي صرت أعرف أكثر فصولها، ولكن ... بين واجباتي المدرسية، وألعابي، ولقاء الصديقات على بئر القرية ، غفلت عن الحكاية وتنبهت فيما بعد، لأجد الطفولة قد تناءت حتى صار بيني وبينها بضعة من العقود، ولأجد نفسي تائهة ضائعة في شوارع مدينة أنطاكيا التركية، في اليوم الثاني من رمضان، صائمة والقيظ يجعل الإسفلت يكاد يغلي تحت قدمي، ما عدت أملك من المال ما يكفي لأدفعه أجرة فندق، ولم أجد بيتا أستأجره لأسكن فيه، أصحاب البيوت لا يؤجرون بيتهم لامرأة وحيدة قادمة من بلاد اشتعلت فيها حرب ليست كالحروب، حرب الدولة على الشعب الثائر المطالب بكرامته، كرامته المسحوقة تحت الحذاء العسكري، حرب استخدمت فيها الحكومة كل أنواع الأسلحة، وتفرق الشعب بين ثائر لا يهاب الموت، ليس لديه شيء يخسره، بعدما استنزفت الدولة في الخمسين سنة الماضية كل ماله وطاقاته وقدراته،

ومؤيد للحكومة مستفيد من حالة الفساد السياسي والإداري التي أفرزتها دولة المخابرات والمحسوبيات والطائفية، وقسم ثالث خانع مستسلم يكرر (من تزوج أمي صار عمي).

دخلت أقرب مسجد أنشد الظل وقسطا من الراحة، قال لي الشيخ: هل تريدين العمل معنا في تحفيظ القرآن الكريم؟ قبل العمل أريد مأوى يا شيخ، لقد وصلت في موكب النازحين إلى مدينتكم، مع مجموعة عائلات لا أعرف منها أحدا، رفاق الموكب توزعوا بين مخيمات أقمتموها لاستقبالهم، وبيوت استأجرها من يملك مالا، وبقيت وحدي على قارعة التشرد والضياع، سألني : أين تسكنين؟ أجبته : هنا.. في الشارع، قال أين متاعك؟ متاعي حقيبة يدي، وأخرى صغيرة فيها حاسوب محمول، طلب مني مراجعة مفتي البلد، ربما أجد لديه حلا، كتب عنوان المفتي على ورقة صغيرة، أخذتها منه وعدت إلى الشارع، أردد ما قاله نبينا العظيم صلوات الله عليه: اللهم ان لم يكن بك غضب عليّ فلن أبالي.

مشيت، أستوقف المارة بعد كل مسافة، كالمتسولة أعرض عليهم الورقة التي أحمل، أجهل لغتهم ويجهلون لغتي، يشيرون إلى الطريق، أتابع السير ثم أعود لأسأل، هل كنت أخشى الضياع؟ وهل من ضياع يعادل ما أشعر به؟

لست بالضائعة، أنا أبحث عن نفسي هنا، أبحث عن موطئ ثابت أضع عليه قدمي لأنطلق إلى عالم الإنسانية التي افتقدناها هناك، حطمت قيودي على المعبر الحدودي، لكني لم أصل بعد إلى الشعور بالحرية، لا حرية لمن لا مأوى له، برغم كل شيء أشعر بسعادة ما عرفتها من قبل، أشعر أني أستطيع أن أقول ما آمنت به، بلا خوف ولا وجل، أقوله ولو بيني وبين نفسي، بصوت ينطلق من فمي ليلامس مسمعي فيطربني.

وصلت إلى أحد مواقف الباص، وفي نيتي الجلوس على مقعده لأخذ قسط من الراحة، لكن المقعد كان مشغولا بثلاث نساء، لا يتسع لجلوسي، ألقيت التحية وعرضت عليهن الورقة التي أحمل، سألتني إحداهن: ماذا تريدين من المفتي؟ الحمد لله.. وجدت من يتكلم العربية، أريد منه مساعدتي في إيجاد مأوى، بعد استفسارات عن متاعي وعملي وأهلي قالت: ستسكنين عندي، لا حاجة بك لزيارة المفتي.

خمنت في نفسي: هذه امرأة تملك منزلاً، تبحث له عن مستأجر لا يتعبها بصراخ الأطفال وكثرة العيال، حمدت الله وشكرته، شعرت بشيء من الأمان، وقفت بجانبها أنتظر إشارتها للانطلاق، اذ كانت مع أختيها ينتظرن صديقة لهن، ستذهب معهن إلى منزل صديقة أخرى، يعزينها بوفاة والدتها، تنفست بعمق ورحت أتأمل ما حولي، الشارع نظيف تظلله أشجار سامقة،

الأزهار مزروعة في كل مكان، ما رأيت في بلادي، ولا في عاصمتها شوارع بمثل هذه النظافة وهذا الترتيب، في بلادنا، أعمال الصيانة تتمدد على طول أيام السنة، في كل الشوارع والأرصفة، يطمر هنا ليحفر هناك، يطمر اليوم ليحفر غدا، أو بعد أيام، بذريعة تجديد خطوط الماء والكهرباء والهاتف والصرف الصحي، أو لترقيع الإسفلت وتجديد حجارة الأرصفة، وكل صبي صغير في سورية يعلم أن هذه المشاريع لا تهدف لتخديم المدينة أو تجميلها، بل هي ذريعة لرؤساء البلديات وحاشيتهم من موظفيها من أجل سرقة المال العام، ترفع الفواتير بأرقام خيالية، لا ينفق على المشروع إلا أقل قليلها، ويذهب الباقي إلى جيوب أصحاب المشروع، قلت في نفسي: بعد سقوط النظام سنجعل شوارعنا أجمل من هذا الشارع وأكثر نظافة وترتيباً منه.

هنا أبنية حديثة، أنيقة مرتبة، تصطف على جانبي الشارع على امتداد البصر، وهناك، كانت رخصة بناء غرفة واحد تكلف من الرشا مبلغا يعادل كلفة بنائها أو يزيد، ولكن، في بداية الثورة غضت البلديات النظر عن الرخص فراح الناس يتسابقون في إشادة البناء العشوائي، أبنية لن يسكنوها، بل ستهدمها صواريخ وطائرات الحكومة قبل تمام إنجازها، أو سيتركونها ويهيمون في بلاد الله نازحين بما يرتدونه من الثياب، ليسكنها مرتزقة جلبوا من كافة أمصار الأرض، أو تتحول إلى مقرات للشبيحة والميليشيات

الطائفية ، ما كان الناس يدركون أن إتاحة الفرصة للبناء هو استنزاف لما يدخرون من أموال، بقصد إفقارهم وإشغالهم عن الخطر المحدق بهم.

نبَّهتني مريم من شرودي، مريم، المرأة التي سأسكن بيتها، رافقتها وصويحباتها إلى مجلس العزاء صامتة طوال الوقت، لأول مرة أجد نفسي بين أناس لا أفقه من حديثهم كلمة واحدة، خرجن فخرجت معهن بعدما أدين واجبهن تجاه صديقتهن، راحت النساء الثلاثة يتداولن شرح وتفصيل ما نراه ونحن نركب الباص، يرشدنني إلى مفاصل الطريق حتى وصلنا إلى المحطة القريبة من بيتهن، نزلن فنزلت، رحن يشرحن لي بكل مودة تاريخ الشارع واسمه، واسم محطة الوقود القريبة من منزلهن، دخلت معهن إلى حيث دخلن، فرأيت بيتا واسعا مرتبا، بنوافذ وشرفات واسعة، النظافة ظاهرة في كل أركانه وزواياه، سألتهن عن غرفتي، قالت مريم، وهي أوسطهن، لا يوجد لدينا منزلا نؤجره، ولا غرفة، بيت أبينا كان مفتوحا طوال عمره لاستقبال الضيوف، وأنت أخت لنا، ستقيمين معنا، تعيشين بيننا كفرد من أفراد أسرتنا، حتى يحكم الله في أمركم وتعودون لدياركم.

منذ ذلك اليوم صار بيت مريم بيتي، أتحرك فيه بكامل راحتي وحريتي، مريم تغادر البيت في الصباح الباكر، لتلحق بمخيم اللاجئين السوريين، حيث

تم فرزها للعمل كمترجمة، بين اللاجئين والموظفين الأتراك، وتطوعت أختها أمينة، فصارت ترافقني في جولاتي على المشافي بحثاً عن الجرحى من أقاربي وأهل قريتي، ثم عموم الجرحى من نساء ورجال في مشافي انطاكية، ونعود في المساء، لتجتمع معنا الكثير من النساء السوريات الساكنات في بيوت قريبة، وكذلك نساء من أقارب مريم، لنتحدث عن مشاهداتنا خلال النهار، ولنتباحث في أمور مساعدة الجرحى الذين لا مرافقين معهم، وأمور العائلات القادمة حديثا عبر الحدود.

مريم تحكي وتضحك ضحكة تفيض بالمرارة، تقول بينما الشباب الأتراك منهمكون في نصب خيام جديدة، وفي تقديم الغذاء والدواء للنازحين، تهرول عجوز نحوها، تلهث، تحاول التقاط أنفاسها، هذه العجوز وصلت لتوها إلى المخيم، مريم تترك الجميع وتتجه إلى العجوز، لعلها مضطرة لحاجة لا يمكن تأجيلها، تقول لها العجوز: كل جاراتي في الحارة لديهن قدور لها صفير حين تطبخ، جلبنها من تركيا، أنا الآن في تركيا، أريد قدراً مثل تلك القدور، تطلق صفيرا يطربني ويغيظ جاراتي، تسألها مريم: ماذا ستفعلين بها وأنت تسكنين خيمة؟ تجيبها: لن أستخدمها هنا، سآخذها معي إلى بيتي حين أعود، مسكينة تلك العجوز، لم تدرك أن بيتها قد تهدم، وأنها ستموت في المخيم، وتدفن هنا في الأرض التركية، وأنها لن تعود.

مريم تقود نهضة نسائية إسلامية، لذلك أخذت دورها في مخيم اللاجئين، راحت تبث المواعظ لتثبيت قلوب خلعها الرعب، تطلب من النساء العودة إلى التقوى، تحثهن على الصبر وتفتح لهن أبواب الأمل، تنبههن إلى حرمة المال العام، وتنهاهن عن إلقاء الأوساخ بين الخيام، تعيب على بعضهن ذك الجشع أثناء استلام المعونات، تأمر من أخذت نصيبها من الطعام أن تترك الفضل لأختها المحتاجة، فيقول لها المرشد النفسي أن هذا السلوك يعتبر عادياً أثناء الحروب والأزمات.

امرأة أربعينية تخترق الزحام لتصل إلى مريم، تطلب منها التوسط بالترجمة بينها وبين الصيدلية، ماذا تريدين؟ بعد كثير من العناء أفهمتها أنها تريد نوعا من الكريمات الواقية من أشعة الشمس، تخاف على وجهها أن يتغير لونه بفعل الحر الشديد، وهذا ما لا يرضاه زوجها، حين تعود إليه في بيتها، كان بعض المقيمين في المخيم يعلمون أن زوجها قد استشهد في المعركة الأولى، وهي لا تعلم.

امرأة أخرى كانت تبكي بِلَوعَةٍ، تسأل الرائح والغادي عمن يرافقها بالعودة إلى قريتها، عند الحدود بين سورية وتركية، وحين ابتعدت أصوات القذائف والصواريخ، وكفت قافلة النازحين عن الركض، وصارت تمشي

متمهلة يهدها التعب والرعب، في تلك اللحظات تذكرت أنها نسيت ولدها الرضيع نائما في سريره، حين حملت أخويه الأكبر منه وغادرت البيت، كانت تسأل عن طريق العودة، وتحتار لمن تسلم طفليها، لتذهب وحدها تحت القصف والانفجارات المتتالية لصواريخ وبراميل تلقيها طائرات الحاكم، لقتل شعبه وهدم المدن والقرى، تطلب مرافقا لها في طريق عودتها، وليس هنالك من يستجيب لضراعتها، سوى طفل يبلغ من العمر ثماني سنوات، كان يبكي بلوعة مثل لوعتها، كان خارجا من مدرسته، فوجد الناس رجالا ونساء، شيوخا وأطفالاً، يركضون باتجاه واحد وقد سيطر عليهم الرعب، ركض مع الراكضين وانتهى أمره إلى هذا المخيم، بحث عن أهله فلم يجد أحداً منهم، كان يلح على تلك المرأة برجاء حار أن تصحبه معها، وهي ترفض مرافقته، لأنه سيكون عبئاً عليها في ذلك الطريق الطويل، لن تتمكن من الاعتناء به وحمايته، وهي بحاجة لمن يرشدها ويحميها، ولن تتمكن من إرشاده إلى أهله وهو لا يعرف اسم قريته، ولم يتعرف إليه أحد من خلال اسمه.

* * *

أنا الآن في غازي عينتاب، أبحث عن عمل، أبحث عن مكان لي في هذه الثورة، أنا ما غادرت بيتي وتركت عملي لأعيش عالة على مريم، وعالة على نفسي لا أفعل شيئاً، لكني لم أجد ما أبحث عنه في غازي عينتاب، لا بد من العودة إلى مريم، وقبلها، لابد من العودة إلى ساحة السوق لألقي نظرة وداع على تمثال العجوز الحزين، دنوت منه ، حاولت مسح الدمعة المتحجرة في زاوية عينه، مكررة عبارة جدي: ليس في الدنيا ما يستحق كل هذا الحزن، وأن هذا الجمود لن يعطيك أية ثمرة، لا بد من الحركة والسعي.

لماذا أعود إلى مريم الآن؟ شعوري بالخيبة يرهقني بعد فشلي في إيجاد عمل، لا أريد أن أشاركها خيبتي، لا أطيق عبارات الشفقة والتعزية، لابد لي من إيجاد مسكن ومأوى، مجموعة الأغراب الذين رافقتهم في رحلة النزوح سكنوا منزلا استأجره لهم بعض أقاربهم، انفصلت عنهم بعد ليلة واحدة، لتبتلعني الشوارع، وأتوه بين الفنادق الرخيصة والمخيمات، بحثا عن أشخاص أعرفهم، أو أتعرف عليهم، في المخيمات لا تعطى خيمة لامرأة وحيدة، لابد من عائلة، وأنا لا زوج لي ولا أبناء، الخيار الآخر هو مجموعة نساء وحيدات، هل أستطيع مساكنة نساء لا أعرفهن في خيمة واحدة وعذاب مشترك؟ عقلي مدينة كبيرة أصابها زلزال مدمر، أحتاج الكثير من الوقت لأعيد بناء ما تهدم منها، وترتيب ما بعثرته الفوضى، أريد الانفراد بنفسي.

تناهى إلى سمعي أن أحد إخوتي قد لجأ مع أسرته وأطفاله إلى مخيم أورفا، سأسافر إليه، الطريق طويل جدا، ساعات من السفر لا بأس بها سأحاول خلالها ترتيب أفكاري لأحدد اتجاه انطلاقتي في هذه الحياة الجديدة التي فرضت عليّ وما كنت أتخيلها، هاتفي ما يزال يحمل الخط السوري، رئيس دائرتي وزملائي في العمل يتصلون بي بين حين وآخر، يطلبون عودتي، يسألونني لماذا غادرت البلد؟ هل ضايقك أحد؟ هل تعرضت للاعتقال؟ لا.. أنا لم أعتقل، لكني رأيت بوضوح الطريق الذي يدفعونني للسير فيه، يؤكدون أني لست مطلوبة لأي فرع من فروع المخابرات، أعرف هذا جيدا، وأدرك أنه فخ مرتب بشكل متقن لاصطيادي، غايته أن أكون بوقا من أبواق السلطة، أبارك جرائمهم، وأبرر ما يفعلونه بأهلي وبلدي، ولأتنصل من مبادئ آمنت بها منذ عرفت الإيمان.

ليس هذا ذكاء مني، بل معرفة وتجربة، في قريتنا مثل يقول (ليس من خبرتي، بل مما جرى على قرعتي) أثناء معركة الحفة الكبرى، نزح معظم سكان القرى المحيطة بها، توزعوا بين اللاذقية وجبل الأكراد، كثير منهم لجأ لقريتنا، طالبا للأمان، في كل بيت من بيوتنا سكنت عائلتان أو ثلاث، نتقاسم معهم ما ادخرناه من المؤن، بعد إغلاق الفرن الوحيد الذي يغذي المنطقة، نقف معهم على حافة وادي قريتنا، لنشاهد القذائف تهوي من منصاتها التي

أقيمت في القرى العلوية المجاورة وتسقط فوق مدينة الحفة، وقرانا الواقعة على الجانب الآخر من النهر، بينما تزدحم الطائرات المروحية في الفضاء، كأنها غربان الشؤم، مصوبة نيران رشاشاتها في كل اتجاه، ومطلقة صواريخ ترتج منها الوديان.

في تلك الساعات الرهيبة، كانت تأتينا اتصالات هاتفية من الجبهة، تنبئ في كل مرة عن استشهاد أحد شبابنا، رن هاتفي، قالت المتحدثة : أنت من أهم الكاتبات في سورية، نريد إعداد ملف في صحيفة تشرين عنك، وعن كتبك وجوائزك الأدبية، أجبتها : الآن ؟ الآن عرفتم أهميتي؟ منذ بدأت الكتابة والنشر لم تكتب صحفكم فقرة واحدة عن كتبي وعن جوائزي، ولكن حسنا، أسكتي هذه الطائرات والمدافع التي تقصف قريتي لأعرف كيف أتفاهم معك.

اتصال آخر، قال المتحدث نحن من جريدة البعث، نريد أن نسلمك عمودا ثابتا في صحيفتنا، أجبته: ما الذي سأكتبه في صحيفتكم؟ هل أكتب على موسيقا هدير طائراتكم وانفجار قذائفكم في بيوتنا؟ هل أكتب عن جيوشكم ومدرعاتكم التي اجتاحت قريتي فنهبت ما استطاعت نهبه، ولما لم تجد من يواجهها أطلقت نيرانها على الأبقار والخيول، ولم تسلم منها

الكلاب، تركت جيوشكم تلك الحيوانات المسكينة تتخبط بدمائها لا هي حية ولا ميتة؟ أم أكتب عن أول شهيد سقط بنيرانكم هو ابن عمي غزوان شاكوش؟

هاتف ثالث، يقول المتكلم نحن من ديوان المحافظة، نريد منك تفنيد ادعاءات الإرهابيين بأن هناك معركة في الحفة، أجبته : ألا تسمع عبر الهاتف هدير الطائرات وأصوات المدافع تصدع الأودية؟ هل تريد مني تقريرا كاذبا؟ ابحث عمن يتقن الكذب، لست أنا من ينفعكم الآن.

خلعت الخط السوري من هاتفي واستبدلته بخط تركي، قررت السفر إلى أورفا لعلني ألتقي مع أخي وأسرته، في سيارة الأجرة التي أقلتني إلى محطة الحافلات، كان بصري يمسح الشوارع المشجرة والحدائق، والمحلات التجارية التي لم تفتح أبوابها بعد، لكن عقلي في غفلة عن كل شيء، كأنما أخذ إجازة قسرية وتوقف عن التفكير، السيارة تمشي بموازاة خط الترام، ثم تنعطف يمينا، هذه أول مرة أزور فيها غازي عينتاب، البناء الذي يحتل الواجهة لفت انتباهي بشدة، كأني أعرفه، كأني دخلته يوما ومشيت في ردهاته، ولكن أين؟ ومتى؟ حصرت ذاكرتي فخذلتني، ابتعدت بي السيارة، نزلت منها بين زحمة المسافرين، وظل ذلك البناء يومض في خيالي وينطفئ كمصابيح العيد، أسأل

نفسي : أتراني رأيته في أحلام نومي؟ أم في أحد الأفلام؟ ما وصلت لنتيجة، وضاع مني في فوضى المشاهد والأفكار.

وصلت إلى محطة الانطلاق في الصباح الباكر، الريح الباردة تنوح بين الأشجار وتدور حول الأعمدة، الحافلات الكبيرة يغص بها المكان، المسافرون يسرعون إلى حافلاتهم لا يلتفتون لشيء، الأطفال يفلتون من أيدي أمهاتهم ليركضوا على الرصيف الطويل، وليلعبوا في الثواني المسروقة من عمر السفر، بينما وجدت بعض السوريين يفترشون الأرض بجانب متاعهم، وما متاعهم سوى بعض الملابس والبطانيات، بعضهم أمضى ليلته نائما هنا، في المحطة، وقد تلفع ببطانيته على أحد المقاعد، وما زال غارقا في نومه برغم البرد والضجة والقهر، تمر المشاهد أمامي ولا يستوقفني منها شيء، كلها جديد علي، لكني أتلقاها كم يقرأ كتابا سبق أن حفظه عن ظهر قلب، تفكيري محصو بين ما يدور، أو ما لا يدور في سراديب عقلي وأعجز عن تجميعه برغم محاولاتي المستميتة.

دنت مني امرأة شابة، ترتدي عباءة سوداء شديدة الاتساخ، تحمل طفلا على ذراعها، ويتمسك طفل آخر بذيل عباءتها، سألتني بانكسار: أنت سورية؟ أجبتها بهزة رأسي أن نعم، بؤسنا لا يخطئه النظر، سألتني هل

تسافرين إلى مخيم أورفا، مرة أخرى أجبت بهزة رأسي، قالت نحن كذلك سنسافر، هذه وجهتنا، بعض أقاربنا سبقنا إلى هناك، سنلحق بهم.

أسرة مسافرة إلى مخيم أورفا، ترفد عدد المهجرين قسرا، تحمل حكايات عن القصف والهدم والتجويع والتعذيب، المرأة تريد التحدث إلى أي شخص، وأنا لا أريد الاستماع إليها، لا أريد ركاما جديداً يضاف إلى خراب أفكاري، حين يئست الشابة من ردي تركتني وتراجعت، وقفت بجانب شاب تحيط الضمادات الطبية برأسه وذراعه، والتف حولهما أطفال ثلاثة.

الحافلة الكبيرة تمشي بمسافريها في فلاة تشبه البراري الممتدة بين مدينتي حلب والرقة، باتساع الأرض واتساع السماء من فوقها، شعرت ببعض الانشراح، بعد مدة قصيرة انكشف أمام نظري انعكاس الشمس على صفحة الماء، تنبهت جيدا، ليس سرابا ما أراه، إنه نهر الفرات العظيم، شعرت بفرح طفولي، ومضة قصيرة أطفأها تذكر أصدقاء لي في الرقة ودير الزور، على ضفتي نهر الفرات الذبيح، لماذا نحرم جمال بلادنا وأمانها لنضيع في أرجاء الأرض بحثا عن خيمة تؤوينا بعدما يئسنا من الأمان في وطننا.

ما أجمل نهر الفرات وما أصفى ماءه، أسراب من البط تسبح مطمئنة على ضفتيه، ترى أما تزال ابنة عمي ازدهار تسهر على شاطئه مستمتعة بضوء

القمر ونقيق الضفادع؟ أنا ما حسدتها على شيء سوى هذا، ليت الزمان يجود عليّ بسهرة أخرى معها، في المكان ذاته، هذه الومضة من الفرح التي أهداها إليّ نهر الفرات لن أدعها تذهب سدى، لا بد أن يشاركني بها أحد ما، فتحت هاتفي الجوال وأرسلت رسالة لابنة عمي ازدهار، أخبرها أنني الآن فوق الجسر، وأن الفرات يفتح ضفتيه لاحتضاني، بينما تلتمع مويجاته عاكسة أشعة الشمس في مهرجان استقبالي.

تجاوزت الحافلة النهر ودخلت نفقا مظلماً، انطفأت ومضة الفرح في نفسي ورجعت لتداعيات أفكاري، في زيارتي الأخيرة لدمشق، وقبل أن تأخذ الثورة مرحلة التسليح، سمعت حديثا من الدكتور محمد، هو أستاذ جامعي وشاعر، قال: لقد دخلت الثورة السورية نفقا مظلما لا يبدو أي بصيص نور في نهايته، القضية السورية تحولت من ثورة شعب إلى صراع دولي لا يعرف أحد مآله، وقال، لن يسقط بشار الأسد بالسهولة التي سقط بها حسني مبارك في مصر ومعمر القذافي بليبيا، وزين العابدين في تونس، هذا النظام تحمية كل القوى الدولية الحريصة على أمن إسرائيل، وهذا النظام كان على مدى العقود الماضية خير حارس لأمن إسرائيل، ألا ترون العمليات الفدائية على حدود مصر والأردن لم تتوقف برغم ما عملوه من معاهدات سلام وتطبيع، أما في سوريا فما تجرأ طفل على رمي حجر باتجاه الحدود.

ما أبعد نظر ذلك الرجل، كانت الثورة حينها لا تتعدى المظاهرات السلمية، يتخللها بعض الشهداء هنا وهناك يسقطون صرعى برصاص الجيش والمخابرات، أعادتني ذاكرتي سنوات طويلة نحو الوراء، لتعرض أمام خيالي شاباً جاء برفقة رفيق العبسي، أحد أبناء مدينة الحفة، إلى دائرة النفوس حيث أعمل، كان كلاهما يعمل بحاراً على سفينة أجنبية، طلبت منهما أن يحدثاني عن طبيعة عملهما، حدثني رفيق عن صالات الديسكو التي يرتادها مع رفاقه في كل الموانئ التي تتوقف فيها مراكبهم، كما حدثني عن أسلوب البحارة في إخفاء الحشيش والمخدرات عن أعين رجال التفتيش في المرافئ، وحدثني الآخر، وكان يحمل اسما غريبا مع الجنسية الأرجنتينية، التي حملها والده وجده من قبل، لكنهم ينتمون بالأصل إلى جزيرة أرواد، المقابلة لمدينة طرطوس، حدثني أنه عمل على ناقلة نفط، تأخذ حمولتها من الساحل السوري، تدخل عرض البحر الأبيض المتوسط ثم تستدير راجعة لتفرغه في الموانئ الإسرائيلية، وقتها عرفت لماذا يندرج أي حديث عن النفط السوري تحت بند الاعتداء على أمن الدولة، وعرفت، لماذا أسقطوا الحصانة البرلمانية عن ذلك البرلماني الذي تجرأ وطرح سؤالا تحت قبة البرلمان، كان جوابه حضور رجال المخابرات وسحله مقيدا من داخل مجلس الشعب إلى السجن ليمضي فيه سنوات طويلة.

وتذكرت واقعة هامة من حياتي العملية، لقد جبت المراكز الثقافية في طول البلاد وعرضها، كان هدفي الاختلاط بالناس لأعلم مبرر خنوعهم هذه السنوات الطويلة للمذلة والقهر، المطبق على رقابهم من هذه السلطة الفاسدة المفسدة، بينما كان هدف زملائي وزميلاتي من الأدباء الجدد البحث عن التغطية الإعلامية، والمردود المادي، لينضموا إلى فئة المشاهير.

في إحدى المرات ذهبت برفقة سعاد وأمية وإيمان لإحياء أمسية أدبية في المركز الثقافي بمدينة القنيطرة (المحررة) كما كانوا يسمونها، الطريق إليها مقطع بحواجز للجيش والمخابرات، أوقفت السيارة التي تقلنا عدة مرات، جرى تفتيش دقيق لكل ما فيها، حقائبنا النسائية لم تسلم من التفتيش، وهي لا تحتوي عادة سوى بعض الأوراق والأقلام، مع مرآة صغيرة وبعض أدوات الزينة، بالإضافة إلى الهوية الشخصية، وبطاقة اتحاد الكتاب العرب، تعامل معنا المفتشون بحذر شديد كأنما يتعاملون مع جواسيس، في المركز الثقافي كان الحضور مقتصراً على رجال الأمن بمسدساتهم الظاهرة، بالإضافة إلى الموظفين في ذلك المركز، كان الشريط الشائك الفاصل بين الحدود السورية والإسرائيلية قريبا منا، العلم الأزرق ذو النجمة السداسية يرفرف على كل أعمدة الشريط الحدودي، ولا وجود للعلم السوري، قلت لزميلاتي مازحة: ها نحن قد شاهدنا علم إسرائيل يرفرف في سماء الوطن، نهرتني أمية: إياك أن تعيدي هذا

الكلام أمام أحد، إن كنت حريصة على سلامتك، أمية امرأة تنتمي لدير الزور، أخوها ضباط في الجيش، تعلم من أين تؤكل الكتف.

الأرض وراء الشريط الحدودي جنة خضراء، لا يظهر للنظر شيء من ترابها، وكانت في الجانب السوري بوراً كلها، لا تحتوي من الخضرة سوى بضعة أشجار توت معمرة، تعيش وحدها بلا رعاية ولا سقاية، تحرس البيوت والمستشفى المدمرة، والتي اتخذتها السلطات السورية أيقونة إعلامية، تعرضها على الوفود الزائرة للبلاد، لغاية نجهلها ويعرفونها، مضت أيام على تلك الزيارة، رحت أحدث الأصدقاء عنها، همس لي عجوز من قريتنا، كان جنديا هناك يوم دمارها، بأن أكبال التفجير المحيطة بالمستشفى ما تزال شاهدة على أن ذلك المكان لم يدمر قصفاً بالطائرات، بل تفجيرا بيد خبير، أنجز مهمته بهدوء الواثق المطمئن، الذي لا يخشى رقيبا ولا حسيباً، كم كنا نعيش في غفلة؟

تجاوزت الحافلة التلال الترابية بعد نهر الفرات، وانبسط أمامها سهل يفيض بالخيرات، قرى صغيرة تتناثر على جانبي الطريق، أرض زراعية ترويها مرشّات الرذاذ، قطعان من الأغنام والأبقار والماعز ترعى بأمان هنا، وهناك في بلدي تعيش القطعان وأصحابها في رعب دائم، ترعى في السهول والجبال تحت

سطوة رجال المخابرات، الذين يحاصصون أصحابها بالالتفاف على قانون حماية الحراج، فإما دفع رشوة ترضيهم، أو حصة من القطيع وإنتاجه، أو كتابة ضبط مخالفة يرفع إلى وزارة الزراعة، لتحيله إلى محكمة عسكرية، تقضي بمصادرة القطيع وسجن صاحبه.

الحافلة تتابع السير، تتوالى بقع الأرض باختلاف أشكالها، فهنا حقول الذرة بخضرتها اليانعة، تسقى برذاذ الماء فيتكسر فيه ضوء الشمس وتظهر أقواس قزح، ترقص بألوانها البهيجة على اهتزاز أقواس الرذاذ، وهناك أرض الحصيد ترعى فيها المواشي.

الأرض سهلية تلامس أطرافها الأفق، مازال منظر السهول يغويني بالركض كما كنت أفعل في طفولتي حيث ولدت ونشأت في مدينة حماة، أشتهي أن أخلع حذائي لأركض في السهل الفسيح حافية حتى يهدني التعب، فأقع منبطحة على التراب، ثم أقوم لأركض، وأقع حتى ينهكني الركض، فأستلقي على ظهري لأرسل نظري في زرقة السماء، أشاهد الطيور الجارحة تبسط أجنحتها وتدور في الفضاء متمهلة كأنها تسبح، كنت في طفولتي أقلدها، أبسط ذراعي على جانبي كالأجنحة، وأدور حول نفسي حتى أنسلخ عن

واقعي وتغيم في نظري المرئيات، وفي الليل أنظر إلى القمر، أحصي النجوم من حوله وأنظر إلى ظاهر يدي، هل غزته الثآليل؟

الأستاذ محمود معلم في إحدى مدارس قرى الحسكة، أضحكه حلمي هذا حتى أسال الدموع من عينيه، قال ما هذا الحلم المجنون؟ تخيلك تركضين في السهل، وتركض خلفك كل كلاب القرية..... ثورتنا كانت مثل حلمي هذا، انطلقت بسهولة تطالب بالحرية فطاردتها كل كلاب الأرض، بل هاجمتها وحوش غريبة خرجت من جحور وأوكار ما كانت في الحسبان، أنا ما زلت أحلم، وثورتنا مازالت مستمرة لا مجال للتراجع عنها، ماضية في دربها غير عابئة بالكلاب ولا بالوحوش، متوكلة على الله الذي وعد بنصر من ينصرونه.

طويل هو الوقت الذي أمضيناه في محطة أورفا، انتظارا للحافلة التي ستنقلنا الى رأس العين، القسم التركي من مدينة رأس العين التي قطعها مشرط سايكس وبيكو إلى شطرين، أحدهما لسورية والآخر لتركيا، كما فعل بالكثير من المدن على الشريط الحدودي، وأخيراً انطلقت حافلتنا، الشمس تدنو من مغربها، تنشر ضياءها الأصفر على حقول القطن فيزدهي البياض بألوان رائعة، العمال يجمعون حاجاتهم معلنين انتهاء نهار العمل، تمنيت لو أستطيع

فتح نافذة في الحافلة لأستمع إلى غنائهم وفرحهم، أظنهم يغنون مثلما يغني الفلاحون في حقولنا، يتبادلون الطرائف والأحلام، ينتظرون انتهاء الموسم لتبدأ احتفالات الأعراس، في الجزيرة السورية كل الأعراس تؤجل إلى ما بعد انتهاء موسم القطن وقبض ثمنه، يدفعون مهر الزوجات نقدا ليد ولي أمرها، يأخذه الأب مع ثمن محصول القطن، فيصبح لديه مال كثير، أرقام لا نحلم بها نحن سكان المدن، والقرى الساحلية، هذه القرية هي إحدى قرى الغمر، هكذا اتفق على تسميتها، سكانها من قرى الرقة التي غمرت بيوتها وحقولها بمياه سد الفرات، تم نقلهم إلى هذه المنطقة من ريف رأس العين، ليسكنوا أراض ومزارع جرى الاستيلاء عليها من الإقطاعيين الأكراد والعرب، من المسيحيين والشيشان، في مشروع التأميم الذي جاء به جمال عبد الناصر ، الرئيس المصري، أيام الوحدة، وأكمله حزب البعث بعد استيلائه على السلطة في سورية.

سألت الأستاذ محمود لماذا تعتمدون في وجبة الفطور على الخبز والشاي وأنتم تملكون كل هذه الأموال وهذه المحاصيل؟ أرى الفقر ظاهراً على تفاصيل حياتكم من مأكل وملبس ومسكن، بيوتكم مبنية بالتراب، ولا أرى فيها من الأثاث شيئا ذا قيمة، لم يجبني، أجابتني زوجته سراً، معظم هذه الأموال يعود للبنك الزراعي الذي يقرضهم البذار والسماد والمبيدات الحشرية، يحدد سعرها

وسعر فائدتها كما يحدد أسعار المحاصيل، وما على الفلاح سوى الرضى، وما يتبقى لكم من هذه المبالغ الكبيرة، كيف تنفقونه؟ أجابتني: معظمه ينفق على ولائم لرجال المخابرات أو يعطى نقدا لأيديهم اتقاء لشرهم، في معظم الولائم يأكلون اللحم ويتركون لنا، لأهل البيت، ما تبقى من البرغل أو الأرز المطبوخ بالمرق، وفي أيام كثيرة لا يتبقى لنا من الوليمة أي شيء.

لم يقنعني هذا الجواب، طرحت سؤالي على أشخاص آخرين، فكان الجواب الصاعق، تريدين أن نبني بيوتاً ونجهزها بفاخر الأثاث لمن؟ لأعدائنا؟ ومن هم أعداؤكم؟ قال: هم أصحاب الأرض التي ماتزال مسجلة بأسمائهم في دوائر السجل العقاري، نحن جئنا إلى هنا وأخذنا هذه الأرض بقرار سياسي، ونتوقع في كل لحظة، أن تتغير القرارات وتعود هذه الأرض لأصحابها، هل نترك لهم بيوتا بنيناها بجهودنا، وأثاثاً اشتريناه بمالنا؟ لن نفعل، حين يأتي هذا القرار، نقودي معي، هنا، تحت إبطي، آخذها وأعود إلى بلدي، إلى الرقة، وأترك لهم هذه البيوت الترابية، والفرش والوسائد المحشوة برديء القطن مما لا يمكن بيعه ولا فائدة منه .

يا إلهي، كم زرع حزب البعث من القنابل الاجتماعية الموقوتة، المستعدة للانفجار في أية لحظة، كم خلق من أسباب العداوة بين فئات الشعب بكل

أشكالها، الطائفية والمذهبية والعرقية والمناطقية، نتائجها نراها الآن بأم أعيننا، لقد نجح في تمزيق النسيج الاجتماعي شر تمزيق، ثارات أطلت برؤوسها من جحور الرعب، أصوات تنطلق أسكتها فيما مضى الحديد والنار، لا حول لنا ولا قوة سوى أن نسأل الله أن يجمع شتات المسلمين تحت راية الإسلام، بهذا فقط نتغلب على مكائد صنعت، وزرعت فينا بهدوء، وبخبث شيطاني ربما يحتار فيه الشيطان.

أكوام القطن تسافر بالشاحنات من حقولها إلى المصانع القريبة، ومثلها أكوام من الغيوم البيض تركض في الفضاء مشربة بحمرة الغروب، بعد قليل ساد الظلام وانطفأت المشاهد من النافذة بجانبي، فغرقت بأفكاري من جديد.

لا لم أغرق بأفكاري، بعدما غيب الظلام عن نظري كل ما هو خارج الحافلة تنبهت إلى حديث يدور بين رجلين يجلسان خلفي، قال أحدهما والحسرة تصبغ صوته: لماذا قامت هذه الثورة؟ ثلة من المجانين أشعلوا البلد وخربوها، مصنعنا الذي نقلناه إلى تركيا ما عاد ينتج ربع ما كنا ننتجه في بلدنا، بقية المعامل لم نتمكن من نقلها، لأنها قصفت وهدمت، كنا نعيش في أمان، أكبر ضابط وقاض ومسؤول نشتريه بحفنة من المال، كل المشاكل

تحل بالمال، أجابه الآخر مستنكراً : وهل كل الناس تملك حفنات من المال تشتري بها المسؤولين؟ أنا أعلم أن بعض العمال يؤجل زيارة الطبيب حتى نهاية الأسبوع ليقبض أجرة عمله، وبعضهم يؤجل شراء الملابس لأطفاله موسما بعد موسم لأنه لا يملك ثمنها، لا تكفيهم الأجور التي تدفعونها لهم، يعمل كل أفراد الأسرة، ويموت جيل بعد جيل في بيوت مستأجرة، قبل أن يمتلكوا منزلا يشعرهم بالأمان والاستقرار، منزل لا يطرق بابه في أول كل شهر من صاحب البيت مهدداً بطردهم إن لم يدفعوا، قال الأول وماذا نفعل لهم؟ هل نملكهم بيوتنا ومصانعنا؟ نحن ندفع لهم أجورهم كاملة غير منقوصة، لكنهم غدروا بنا، وانضموا لصفوف الثوار، فكانوا سبباً في خراب بيوتنا، قال الآخر: تقول إن مصانعكم قصفت، وهل يملك الثوار طائرات ليقصفوكم بها؟ أليست طائرات جيش بشار الأسد هي من قصفتكم؟ وأنتم ما تزالون على مواقفكم المؤيدة له، أجاب الأول باشمئزاز: هم استفزوه فانتقم منهم بقصف المعامل التي يعملون بها.

تمنيت لو أدخل في حديثهما لأسأل صاحب المال: هل كان أحد موظفي الحكومة يقبض راتبه كاملاً؟ أما كان المحاسب يقتطع منه مبالغ مرة بذريعة المجهود الحربي وأخرى لدعم انتفاضة فلسطين، وأخرى بحجج ما أنزل الله بها من سلطان، ومن يجرؤ على الاعتراض سيتهم بوطنيته، وتخاذله تجاه

القضايا المصيرية للأمة، لأن جميع المحاسبين مدعومون بشكل كامل من القيادة العليا، يدفعون الموظف دفعا في طريق الرشوة والسرقة والفساد، ولأطرح سؤالاً آخر : هل كان في بلادنا بيت أو مصنع أودكان في مأمن من مداهمة رجال المخابرات واعتقال صاحبه؟ هل كانوا آمنين من تقارير يكتبها المخبرونُ تداهَم بموجبها البيوت لتُسرق منها الأموال والمصاغ وكل ما غلا ثمنه أمام أعين أهلها؟ هل كان المواطن يأمن على نفسه من الاعتقال؟ والتهمة؟ لا حاجة لتهمة، التهم قمصان جاهزة مفصلة على كل المقاييس في فروع مخابراتهم، يلبسونها لمن يشاؤون حين يشاؤون، لكن حديثهما انتهى وساد الصمت.

تدخل الحافلة بلدة صغيرة، تتوزع المصابيح فيها على جانبي الطريق، التفت إلى الخارج حيث النور، الحافلة تجري مسرعة، كل مصباح يعطيها ظلاً، يمشي الظل معها إلى منتصف المسافة الفاصلة بينه وبين المصباح التالي، يبهت الظل تدريجيا وبسرعة حتى يختفي، ظلال بعدد مصابيح ذلك الشارع، تأتي من خلف الحافلة، تحاذيها مسافة قصيرة ثم تسبقها وتختفي، ثورتنا تمشي على مثل هذه الطريق، يتراكض خلفها وبحذائها القادة والداعمون، ومن يسمون أنفسهم أصدقاء سورية ثم يختفون كما تختفي هذه الظلال، تجاوزت الحافلة شارع المصابيح، ثم دخلت في الظلام، ورجعت لأفكاري.

الظلام بحر تسبح فيه هذه الحافلة، تومض بعض النجوم في سمائه، تؤنس ليل العاشقين وتهدي القوافل لدروبها الطويلة، تلمع بعض المصابيح في القرى البعيدة، معلنة عن حياة آمنة في هذه البطاح المظلمة، والظلم بحر آخر تغرق فيه بلادي، لا نجوم في سمائه، ولا مصابيح في أرضه، ينقطع التيار الكهربائي ساعات متواصلة، مرة بذريعة التقنين، ومرة بذريعة الأعطال الفنية، ومرات لغياب العمال المسؤولين عن حركة القواطع، تظلم القرى والمدن، لتعلن أن موتاً ما، يفرض على السالكين دروب الحياة في هذه البلاد، عشاق الحرية والكرامة تصطادهم نيران الحاكم، والمسافرون ذاهبون بلا أمل في العودة، عائلات بكاملها تقتل تحت ركام منازلها، وعائلات تموت غرقا في البحار، عائلات أخرى تفترش الأرض وتلتحف السماء على الحدود الدولية منتظرة السماح لها بدخول بلدان الجوار والإقامة في الخيام.

ألتفت للخلف، بحثاً عن الرجلين الذين كانا يتحدثان لغة (كنا عايشين) لأجد أحدهما نائماً، والآخر جاحظ العينين يحدق في الظلام، أتراه يفكر بما أفكر به؟ هل يقول لنفسه الآن أن هذه البلاد كانت بلادنا قبل أن يحكمنا أعداء أرضنا وديننا، قبل أن يقسموها، أو يتقاسموها، كتقاسم رغيف خبز بين ثلة من الجياع؟ بل مثلما يتمزق جسد غزالة وادعة بين أنياب الوحوش، كان جدي يسافر إلى إسطنبول وأنطاكيا والأناضول، بسهولة من يتنقل بين

حجرات بيته، حيث لا حدود ولا جوازات سفر، له أصدقاء في كل تلك البلاد، منهم من شاركه تجارة، ومنهم من كان زميلا في الدراسة، ومن شاركوه وشاركوا أباه من قبله في الجهاد أيام الحربين العالميتين، وبعدها في الثورة ضد الاحتلال الفرنسي، كان يتحدث اللغة التركية مثلما يتحدث اللغة العربية، لكننا اليوم أغراب هنا، في دولة غير دولتنا، قنوات الإعلام في بلادنا نسيت الأكاذيب التي رددتها منذ نكبة فلسطين، عن عداوتها لإسرائيل، وعزمها على استرداد الأراضي المحتلة مهما طال الزمن، وصرح المتحدث باسمها بأن أمن النظام الحاكم هو من أمن إسرائيل، نسيت الحكومة الأسدية هذا كله وكرست تركيا عدواً أول، لأنها احتضنت الفارين بأرواحهم وأطفالهم من نيران مدافع الحكومة وطائراتها، الفارين من جنوده الذين لا يرحمون كبيراً ولا صغيراً، من سجونه التي فغرت أفواهها لتبتلع عشرات الآلاف من الرجال النساء والأطفال أيضا، من المدارس والمعامل والمستشفيات، التي تحولت كلها إلى سجون.

أغراب نحن هنا؟ لا لست غريبة، مريم ما رضيت أن تؤجرني غرفة في بيتها، وهي لا تناديني باسمي أبداً، بل يا أختي، سلمتني مفاتيح بيتها لأعود إليه في غيابها مثلما أعود إلى بيتي، وضعت كل ما في بيتها في متناول يدي، ومثلها فعلت أختها أمينة، أعطتني مفاتيح بيتها لآوي إليه في غيابها

وحضورها، حين يمتلئ بيت مريم بالضيوف، وحين أريد خلوة مع نفسي، لأقرأ أو أكتب أو أتابع الأخبار.

أم مريم، العجوز المقعدة، أسمعها تدعو الله بعد كل صلاة تصليها، ترجوه أن يفرج كربتنا، وليحميني ويحفظني من كل كرب وتعب، وأن يعيدنا إلى بلادنا، ولكن، ما شد انتباهي بقوة في صلاتها، هو ابتهالها إلى الله ليحفظ رئيس البلاد، رجب طيب أردوغان، ولينصره على أعدائه ويوفقه إلى كل ما فيه الخير، سألتها يوما: أرى حصة رئيس البلاد من دعائك أكثر من حصة أولادك؟ قالت يا ابنتي، خير أولادي يذهب لأنفسهم، ولعائلاتهم، أما هذا فخيره يشمل كل الأمة، فكيف لا أخصه بدعائي؟ سأظل أدعو له ما دام في صدري نفس يتردد، إنه أحق بدعائي من أولادي.

أغراب نحن هنا؟ لا، لا أشعر بالغربة هنا، كل تركي يتكلم العربية ممن قابلتهم في مسيرتي هنا نصب نفسه ترجماناً، ورافقني لتيسير أمري، وهو يدعو الله أن يفرج كربتنا، ومن لا يعرف اللغة العربية كان يرفع كفيه ليدعو الله أمامي، أرى الدموع تتأرجح في عيونهم، أرى الصدق صافياً في تلك الدموع، أنا لست في غربة، بل في بلدي، وكل بلد مسلم فيه أمثال مريم وأسرتها هو بلدي، وليس ذلك الحيز المحصور ضمن أسلاك سايكس وبيكو.

دخلت الحافلة مدينة راس العين، مصابيح الشوارع وحدها ساهرة تعلن عن وجودها في هذه المدينة النائمة، الدروب خالية من البشر ولما تمض ساعة على صلاة العشاء، توقفت الحافلة، أحاط بها عدد من سيارات الأجرة الصغيرة، بحثت بعيني عن الأسرة المسافرة إلى مخيم اللاجئين، كانوا هم أيضاً يبحثون بأعينهم عني، ركبنا معاً سيارة أجرة لتنقلنا إلى المخيم، كان الطريق ترابياً مظلماً، قطعناه في حديث عن شؤون وشجون بلادنا، المرأة خسرت أحد أخويها في القصف الذي طال قريتها، بينما بقي أخوها الآخر جندياً في جيش الأسد، كانت حزينة على الاثنين معاُ، وعلى أبويها العجوزين الذين رفضا مغادرة بيتهما وقريتهما، فضلا الموت في منزلهما على العيش في مخيم.

الأطفال استسلموا للنوم بعد وصلة بكاء سببها الجوع، المرأة الثرثارة لا تسكت أبداً، وأنا أريد وصل ما انقطع من سلسلة أفكاري، حدثتني عن حياة سعيدة عاشتها مع زوجها، يغلفها الفقر والحرمان، كانت توفر من ثمن الطعام والملابس والعلاج لتجمع النقود، حين صار لديها ما يكفي لبناء بيت صغير، على أرض ورثها زوجها عن أبيه، باشرت العمل بيدها ويد زوجها، ساعدته في حفر الأساس ونقل الحجارة والتراب، ليوفرا أجرة العمال، باعت خاتم عرسها وخزانة ملابسها، كل هذا من أجل امتلاك بيت لا تضطر لدفع أجرته في نهاية كل شهر، سواء وجد زوجها عملاً أم لم يجد.

كانت تبلل بالدموع كل كلمة تقولها، وزوجها صامت جامد كالتمثال، حين اكتمل بيتها، لا.. لم يكتمل، بل اكتملت جدرانه وسقفه، حجرتان صغيرتان مع حمام ومطبخ، فرحت إذ صار لديها سقف وجدران، أغلقت النوافذ برقائق من النايلون، وأسدلت على الأبواب بطانيات قديمة، ثم نقلت ما تبقى لديها من الأثاث إلى بيتها الجديد، زرعت حول بيتها الخضار والأزهار، وحمدت ربها على هذه النعمة الكبيرة.

بطارية هاتفي أوشكت على نفاد مخزونها، لا شيء معي في هذا الظلام أهرب به من حديث هذه المرأة، ومن دموعها، سمعت منها حكاية تكررت في كل قرية من قرى سورية، وكل عائلة من عائلاتها، تقول محدثتي: حين بدأت الطائرات تحوم فوق القرية، سارع الرجال فنقلوا العائلات والأطفال إلى كهوف في الجبل القريب، ابنتي زينب ركضت عائدة إلى البيت لتجلب دميتها.

ليس الآن وقت الدمى يا زينب، لم تسمع كلامي، ركضت راجعة ودخلت المنزل، وقفنا جميعا نتفرج على القذائف تنهمر كالمطر، فتنبت في مكان سقوطها أشجار عملاقة من الدخان والغبار، محمولة على جذوع من نار، وحين غادرت الطائرات سماء القرية، وانجلت سحب الدخان والغبار،

هرعنا لتفقد آثارها، كان سقف بيتنا على الأرض، يطمر تحت ركامه كل ما نملك من المتاع، ويطمر ابنتي زينب ودميتها، لم يتركنا الشباب لندفنها، ولندفن من استشهدوا في تلك الغارة، بل دفعوا بنا على طريق الهجرة، ومضيت لا أعرف لابنتي قبراً، لسنا وحدنا، عشرات العائلات مثلنا، خسرنا كل شيء وجئنا بما نرتدي من الملابس، نبحث عن خيمة تؤوينا، عن لقمة يتصدق بها علينا أهل الخير.

لم تستطع إكمال حديثها، غلبها البكاء، وانضم إليها أولادها في جوقة تعزف ما لا يطرب، اذ استيقظوا من نومهم حين توقفت السيارة عند باب المخيم، استقبلنا هناك رجال الشرطة عند نزولنا، انتبهت للرجل زوج تلك المرأة، فرأيت جهازا طبياً يربط بين فكيه، لابد أنه مصاب في الحرب، وأن صمته كان نتيجة انطباق فكيه بضغط ذلك الجهاز.

الوقت متأخر ولا مجال لتسجيلنا في سجلات اللاجئين، لابد من الانتظار حتى الصباح، أدخلنا رجال الشرطة خيمة كبيرة جدا، فيها عدد من العائلات التي سبقتنا، جلبوا لنا طعاما وبطانيات، ثم أشاروا بأن على الرجال المبيت في الخيمة الأخرى المخصصة للرجال، لأن هذه الخيمة مخصصة للنساء والأطفال.

تناول الأطفال الطعام بنهم شديد، ثم استسلموا سريعاً للنوم، بينما ظلت الأم تكمل قصّ حكايتها كأنما تحكيها لنفسها، حين وجدت ألا مستمع يهتم لحديثها لاذت بالصمت محتضنة أطفالها، تلفت حولي أبحث عن أهل بلدي فلم أجد وجها أعرفه، رحت أتابع بعض الحالات وأسجل الملاحظات.

امرأة في الثلاثين من العمر، ترتدي عباءة سوداء وخماراً أسود، اللباس الرسمي الذي تخرج به نساء حلب من بيوتهن، بينما ترتدي معظم النساء ملابس منزلية خفيفة، دلالة أنها أخرجت من بيوتها على جناح السرعة، على غير استعداد منها للخروج، المرأة ذات العباءة السوداء ظلت طوال الوقت تركض إلى خارج الخيمة، لتعود بطفلها ذي السنوات السبع باكياً، يريد أباه، يسألها بغضب: لماذا تركتهم يأخذونه؟ إلى أين أخذوه؟ لا أريد هذا المكان، أريد العودة إلى بيتنا لأستعيد أبي، كانت تحاول تهدئته، وإفهامه أن أباه شهيد، وأنه ذهب إلى السماء، إلى الجنة، فلا يصدقها، لماذا لم يذهب أبي إلى الجنة ماشياً؟ لماذا لم يركب سيارته؟ لماذا حمله الرجال؟ هل صعد كل أولئك الرجال إلى السماء ليوصلوه؟ هات الهاتف، أريد أن أكلم أبي ليحضر من جنته ويأخذني معه، وتعود المسكينة للمحاولة بصبر الصخور، لتفهمه أن الجنة ليس فيها هواتف، ولن يرد عليك لو اتصلت، عليك أن تنام لتراه في أحلام منامك، ويرفض الصبي كل شيء، ظل يبكي

حتى أنهكه البكاء، استسلم لنوم قلق، مليء بكوابيس الرعب، يغفو قليلا ثم يختلج جسده ويشرع بالصراخ والبكاء، وأمه جالسة قرب رأسه، تتمتم بالدعاء، وتمسح رأسه وكتفيه، وتلقي نظرة تلو نظرة على أخويه الصغيرين النائمين قربه.

شعرت بقلبي يتفتت ألماً، ما عدت قادرة على تحمل المزيد، خرجت من الخيمة إلى المساحة الفاصلة بينها وبين الخيمة الأخرى، كان هنالك عدد من الرجال، ينقسمون إلى مجموعات تجلس في العراء، حيث لا مقعد مريح ولا جدار يستند إليه الظهر، ليس سوى الأرض المفروشة بالحصى، وبعض علب السردين الفارغة ينفضون بها رماد سكائرهم، بل رماد احتراقهم.

المرأة ذات العباءة السوداء تقتحم عليّ هدوئي وتأملاتي، تركض باتجاه البوابة ، حيث الشرطي يمسك بولدها ليمنعه من مغادرة المخيم في هذا الليل البارد الحالك الظلمة، عادت بالطفل تتأبط ذراعه بقوة، تسحبه باتجاه خيمة النساء، وهو يبكي ويصرخ بكل ما أوتي من عزم، أنت كاذبة، جدتي كاذبة، الجيران يكذبون، كلكم تقولون أن أبي صعد إلى السماء وأنا رأيته داخل الصندوق، كان نائماً، مغمض العينين متبسماً، لم يسمحوا لي بإيقاظه، بل حملوه بصندوقه وخرجوا من الدار.

عجوز من الجالسين في العراء نهض متوكئاً على عكازه، فتح ذراعيه ليسد على الأم وابنها الطريق، أشار للطفل أن تعال، تملص الطفل من ذراع أمه وركض إلى العجوز الذي احتضنه بحنان، وراح يقبل رأسه ويمسح كتفيه حتى هدأ، وراح يحدثه

- ما اسمك يا حبيبي؟
- عمر
- ما أجمل هذا الاسم، هل تعرف سيدنا عمر بن الخطاب؟
- لا أعرفه
- أنا سأحدثك عنه
- لا أريد حكايات، أريد أبي
- أنا أعرف إلى أين ذهب أبوك
- حقاً؟ قالها الطفل وقد أشرق وجهه بالفرح، هيا.. لنذهب إليه الآن
- سنذهب يا بني، كلنا سنذهب إليه حيث ذهب، ولكن ليس الآن، ألا تراني عجوزاً لا أقوى على المسير؟ تعال اجلس بجانبي، لأرتاح قليلاً ثم أذهب إلى حيث ذهب أبوك.

جلس الشيخ على الأرض، فرد عباءته وضم فيها جسد الصغير، الذي استسلم لهذه الدفقة من الحنان، وأشار للأم من خلف ظهر الصبي أن اذهبي، راح يحدثه عن الشهيد، وعن الحياة والموت، فهدأ الصبي ونام.

رجعت إلى خيمة النساء، لا مجال للنوم هنا، يسكت طفل ليبكي آخر، تصمت امرأة لتبدأ الحديث أخرى، حكايات تتفق في خطوطها العامة وتختلف في تفاصيلها، تركت المكان ورحت أتمشى في الساحة الكبيرة الممتدة أمام خيام الاستقبال، المكان مضاء بمصابيح كبيرة كثيرة، حتى ليبدو كأنه نهار، الأطفال لا يستسلمون للتعب، تناثروا في مجموعات ليلعبوا، كلهم يلعبون، لكنه لعب ليس كألعاب الأطفال، بعضهم يمثل المظاهرات، يحملون قصارهم على الأكتاف ويهتفون: الشعب يريد إسقاط النظام، مجموعة أخرى تمثل المعركة، سلاحهم فيها سوق نباتات الذرة، يطلقون النار بأصوات أفواههم، يختبئون، يتراكضون، يسقط بعضهم شهيدا، يحملونه على الأكتاف، يدورون به الساحة وهم يهللون ويكبرون، ويهتفون : لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله.

اشتد البرد بعد انتصاف الليل، فرجعت إلى خيمة النساء أنشد قسطاً من الراحة، روائح الأجساد المعروقة والمرهقة، امتزجت بروائح النوم وحفاضات

الأطفال وبقايا الطعام الفاسد، أصوات بكاء الأطفال امتزجت مع شخير النائمات وأنين المرضى والجرحى، من يقدر على النوم في مثل هذا الجو؟ اتخذت من حقيبة يدي وسادة، دعمتها بحذائي مثلما يفعل السجناء، أسندت رأسي إليها وغرقت في تداعيات أفكاري إلى أن غلبني النوم.

صحوت على صوت أذان الفجر ينطلق من مكبرات الصوت في الخيمة التي اتخذوها مسجداً، معظم الموجودين قاموا إلى الصلاة، المواضئ ودورات المياه قريبة جداً من مكاننا، صليت الفجر ورجعت أبغي ساعة نوم إضافية، غفوت فترة قصيرة، وصحوت على وهج الشمس الحارق، يخترق جدار الخيمة الرقيق ويغرقني بحمام من العرق.

جاءت وجبة الإفطار، غنية شهية متنوعة، تناولت فطوري وخرجت أبحث عن غايتي، دخلت غرفة الإدارة، كان العاملون هناك قد كنسوا الأرض الترابية ورشوها بالماء، نظافة في كل مكان، هناك التقيت ببعض رجال بلدنا، سألتهم عن إخوتي، أجابوني بأنهم ليسوا في هذا المخيم، ربما يكونون في مخيمات أخرى، وقفت يلفني الإحباط، ضفدع من تحت الأرضية الخشبية أغرتها البرودة والرطوبة فراحت ترسل نقيقها غير عابئة بي ولا بقهري، ربما لم تشاهد مثلي ذلك البحر من الخيام البيضاء يمتد على امتداد الأفق، ربما لم

تدرك لم جاء هذا العدد الهائل من العائلات، ولماذا استبدلت بخيمة صغيرة ضيقة، بيوتا كانت تضم أفراحها وأحزانها، لم تشعر الضفدع بآمالنا وآلامنا، لذلك أطلقت أغنيتها المرحة، معها كل الحق، هذه بيئتها وهذا وطنها، فلتطلق أغنيتها كما تشاء ويشاء لها هذا الأمان الذي يلف موطنها.

ما عاد لوجودي هنا أي معنى، لابد من العودة، ولكن إلى أين؟ كل مكان خارج بيتي ليس بيتي، السيارة تمضي بي في طريق العودة الذي حجبه ظلام الليل عني، فأرى بعد مدينة رأس العين بقليل، وعلى يمين الطريق، ينتصب مخيم آخر، بحر آخر من الخيام البيضاء أقيمت لاستقبال السوريين، يا حسرة على السوريين ومصيرهم، أترانا نلاقي مصير الفلسطينيين ونمضي عمرنا في مثل هذه الخيام؟ أشجار الصنوبر تنتصب شامخة على جانبي الطريق، تذكرني بأشجار تشبهها، مزروعة على جانبي الطريق الواصل بين حمص ودمشق، لكن تلك الأشجار لا تعرف الشموخ، بل تنحني راكعة حتى تكاد هاماتها تلامس الأرض، يقول العارفون بالجغرافيا أن هذا المكان الدائم الرياح واقع أمام الفتحة البحرية، لكني أرى الأشجار تركع لغاية ما، لا يدركها البشر، ربما تصلي لله وتبتهل أن يحفظ بلاد الشام من شر خطير يراد بها، ربما أركعوها في بداية مشروعهم لتركيع كل شيء من البشر والحجر، لكن الإنسان السوري

رفض الركوع لغير الله فقام بهذه الثورة المباركة، مطالبا بكرامة مهدورة بين فروع المخابرات والأحذية العسكرية، في دولة لا تعرف للكرامة الإنسانية أي معنى.

تلك الأشجار تأملتها في عودتي الأخيرة من دمشق، بعد اجتماع في اتحاد الكتاب العرب أعقب ما سمي بمؤتمر الحوار الوطني، الذي أداره فاروق الشرع، تكلم فيه رئيس الاتحاد وكان يغلي حماساً، طلب من أعضاء الاتحاد أن يمدوه بأية فكرة لإبطال هذا الحراك الثوري وحرفه عن مساره، وقال هذه الثورة بلا قائد ولا قيادة، وهذا من مصلحتنا، نحن نريدها هكذا، كلما ظهر لها قائد سنصفيه، أو نعتقله، وسننزل نحن إلى الشارع، نشارك في المظاهرات، ونهتف بإسقاط النظام، وليأت رجال المخابرات، يضربوننا ويعتقلوننا أمام الناس، وننزل في الجمعة التالية، وفي المكان ذاته، أمام الناس ذاتهم، نهتف بإسقاط النظام، بعزيمة أقوى وصوت أعلى، ويحضر رجال المخابرات يضربوننا ويعتقلوننا، في الجمعة الثالثة تدهش الجماهير البسيطة بقوتنا وإصرارنا، فتلتف حولنا، ونصبح نحن قادة الثورة، نوجهها إلى حيث نريد، سوف نتخلى عن بعض ثوابتنا إرضاء لداعمينا، سنتخلى عن فكرة القومية العربية إرضاء لإيران التي سوف تدافع عنا، وكذلك إرضاء لروسيا.

نعم، كان له ما أراد، وما تشتت فصائل الثورة الذي نراه إلا نتاجاً لهذا المخطط الشيطاني الرجيم، ولكن، يا ليت قومي يعلمون.

الأشجار الراكعة كانت يومذاك تتوالى على جانبي الطريق أمام نظري، وأنا أفكر بكل كلمة قالها، قال أيضاً سندخل في عملية سباق التكاذب، من يكذب أكثر هو الرابح، سنلغي القومية العربية لإرضاء الآخرين من كرد وفرس رضاء كاذباً، وستكون الغلبة لنا، بينما كان الصحفي نزيه الشوفي غاضباً أشد الغضب من مؤتمر الحوار الوطني المزعوم، قال إن الخائفين لا يمكنهم عمل مؤتمر أو المشاركة فيه، إن كنت تريد لمؤتمرك النجاح فخذ حقاً من حقوقك وأعط للآخرين حقاً، انتهى ذلك الاجتماع ورجعت إلى اللاذقية، أحصي الأشجار الراكعة على جانبي الطريق، وأحسب نسبتها إلى أشجار الوطن الشامخة، إنها حثالة لا تشكل أية نسبة بين الأرقام.

الطريق من مخيمات اللاجئين إلى أورفا تمتد امتداد الصبر، ما أطول صبرنا، ومن ذا الذي يطيق الصبر على هذا الواقع الأغرب من الخيال؟ أردت تسلية نفسي، مددت يدي إلى الكاميرا ثم تراجعت، هذه الأرض الهضبية المتموجة، الشبيهة إلى حد التطابق مع الأرض المحيطة بمنزل صوان الجدي إلى الشرق من مدينة حماة، لا يمكن تخزينها في صورة على ورق، ولا

في ملف فيديو يحفظ داخل جهاز كومبيوتر، بل تخزن في مقل العيون وشغاف القلوب، أعدت الكاميرا إلى مكانها، ورحت أغسل بدموعي صورا منسوخة من طفولتي يتوالى عرضها على ذاكرتي في هذا المكان النائي.

الحافلة تمشي في طريق العودة، تعبر مدناً صغيرة وقرى تكاد تكون نسخة عن قرانا على الجانب الآخر من الشريط الحدودي، ترتفع أكوام الحطب وقباب الجَلّ أمام البيوت، ويسرح الدجاج بينها يلتقط رزقه من خشاش الأرض، قطعان الماعز والأغنام والأبقار تسرح بين الهضاب، تقتات من أعشاب الأرض وترتاح بأمان أمام نظر رعيانها الصغار، مشهد ألفه نظري في سفري بين حلب والحسكة، مروراً بالرقة، أتنهد بحرقة، ما بقي في بلادنا رعاة ولا مراعي، غادرها الأمان واستوطنتها عساكر الجن والعفاريت.

تدخل الحافلة مدينة أورفا، بوسع المسافر أن يميز فيها نوعين من البناء السكني، قسم قديم متهالك، وقسم حديث جميل فخم، تفصل بينهما مرحلة زمنية من الركود، يا حسرة على بلادي صارت ركاماً كل مدنها وقراها، أذكر، حين زرت بيروت منذ عشرين سنة خلت، رأيت أبنية بلا أبواب ولا نوافذ، آثار الحرائق ظاهرة على جدرانها وسقوفها، لكنها مسكونة، يدل على سكانها الغسيل المنشور على الشرفات، وقفت يومئذ أمامها وبكيت لما

خلفته الحرب الأهلية في لبنان من دمار، صديقتي حسينة تقول أن الحرب الدائرة في سورية هي حرب بين طائفتين، طائفة البعث وطائفة الإنسانية والكرامة، أبكتني في سالف الأيام مدينة بيروت، ترى من يبكي علينا الآن؟ أنهار من الدماء سفكت على أرضنا، ملايين الشهداء والمعاقين والمشردين، ولا بواكي لنا.

دخلت الحافلة محطة أورفا، نزل منها بعض الركاب وصعد آخرون، كل نازل يجد في المحطة من يستقبله بالأحضان والقبلات، كل مسافر يجد من يودعه بالدموع، الفرح ظاهر على كل وجوههم، وأنا، مثل كل نازح سوري، ليس لنا من يودعنا ولا من ينتظرنا، البؤس سمة ملازمة لكل وجوهنا، ونحن نمشي من ضياع إلى ضياع.

في طريق العودة لا بد من اجتياز نهر الفرات، بدأت بكتابة رسالة لابنة عمي ازدهار، يا ابنة عمي إني أتحرق شوقاً لرؤية الفرات قريبا من بيتك، سأرسل لك مع مياهه الصافية سلاماً من القلب، إني أرى سهولاً تمتد على جانبي الطريق، زيتونها يشدني لقريتنا، يذكرني جدي ورائحة الزيت المبارك المخزن في مستودعاته، أعنابها تأخذني لأيام من الطفولة عشناها في القرية، حيث كانت أرجوحتنا ساق دالية تتدلى من شجرة التوت الكبيرة في

الحاكورة، الأشجار التي عراها الخريف كعري شعبنا في هذه الحرب اللعينة التي تشنها حكومة بلادنا ضده تثير كوامن وجعي، أنت الآن في قلب النيران، أسأل الله أن ينجيك من غدرها.

تمتدُّ بي كتابة الرسالة، أختصر العالم في هذه الشاشة الصغيرة، أغفل عن الطريق والركاب وخيبتي في لقاء أحد من أهلي، يصفر الهاتف معلنا أن بطاريته التي لم أشحنها بالأمس بشكل كاف قد صار محتواها في النزع الأخير، أفتح رسالة وصلتني للتو، فأقرأ فيها أن قذيفة غادرة قد سقطت على بيت ابنة عمي ازدهار، فقتلتها مع أطفالها تحت ركام منزلها، أرفع نظري، لأكتشف أني تجاوزت أكثر من ثلثي الطريق، وضاع مني مشهد نهر الفرات.

نزلت من الحافلة في محطة غازي عينتاب، وطلبت من سائق سيارة الأجرة أن يوصلني إلى الفندق الذي كنت فيه، حين وصلت السيارة إلى المنعطف استوقفني ذلك البناء مرة أخرى، وجاءت الصورة من ذاكرتي كالصفعة، لا.. أنا ما دخلت هذا البناء ولا رأيته من قبل، بل رأيت نسختين متطابقتين منه، واحدة في مدينة حلب، هي الكراجات القديمة، والثانية في دمشق، هي محطة الحجاز للقطارات، بل ثلاث نسخ، الثالثة في المدينة المنورة شاهدتها في رحلة العمرة قبل سنوات، ترى ما الرابط بين هذه الأبنية؟ من بناها؟ أهو مهندس واحد؟ هل يوجد نسخ أخرى مثلها في مدن لا أعرفها؟

في غرفتي بالفندق لم أجد ما أفعله، شعرت بالملل، بل زاد على قلبي ضغط القهر حتى كاد يقتلني، نزلت إلى البهو أبتغي كوباً من الشاي، وجدت رجالاً يجلسون في شبه دائرة، يعلو حديثهم الصاخب حتى يصل إلى الطابق الأعلى، كلهم سوري، وكلهم ثائر غاضب، جلست على مبعدة منهم أشرب الشاي، مدير الفندق سوري أيضاً، نزح من بلدته بعد مجازر أودت بكثير من أهله وأصدقائه، سألته عن ذلك البناء الذي شغل تفكيري، لم يجبني، بل حول سؤالي إلى مجموعة الرجال الساهرين.

زاد سؤالي غضبهم غضباً، فراحوا يتداولون فقرات الإجابة، كل منهم يدلي بمعلومة حتى خرجت من بينهم مقرة بجهلي، بل بجهل كل جيلي من أبناء العرب، هذه الأبنية المتشابهة كانت محطات لقطار الحجاز، الذي أراده السلطان العثماني عبد الحميد رابطا بين ديار المسلمين، يسهل عليهم رحلة الحج، بعدما كانوا يمضون فيها شهورا على ظهور الدواب، أو سيراً على الأقدام، متعرضين للبرد والحر وهجمات قطاع الطرق واللصوص، ولقد كان أسعد باشا العظم والي دمشق أميراً للحج، حين زرت قصر أسعد باشا العظم في دمشق مع مجموعة من زميلاتي، سألت الدليل السياحي عن صاحب هذا القصر، قال بأنه إقطاعي صودرت أملاكه بموجب قانون التأميم، وحين سألت عن قاعة الحج والراية المنصوبة فيها، كان الجواب أن أسعد باشا كان

رجلاً ثرياً، لذلك أخذ معه حاشيته في رحلة الحج تباهياً وفخراً، عرفت من كلام الرجال الغاضبين بعض الحقائق، عرفت أن ضابط المخابرات الإنكليزي، والذي سمي بلورانس العرب، قد شجع الشريف حسين حاكم مكة على الثورة والانفصال عن الخلافة الإسلامية، زرع فكرة القومية ووعده بتنصيبه ملكا على كل العرب، لكنه خذله، نفي بعدها الشريف حسين ليموت في قبرص، لا نصب ملكاً ولا توحدت بلاد العرب، لكنهم، ودعما لحركة الانفصال، شجعوا تخريب مشروع قطار الحجاز، فراحوا يشترون من الرعاة والبدو بالليرات الذهبية مسامير السكة الحديدية التي يخلعونها ، ثم تبين بعد ذلك أن تلك الليرات كانت مزيفة، ولم تكن من الذهب.

نعم لقد انهار مشروع قطار الحجاز، وما بقي منه سوى هذه الأبنية التي شاهدتها، كانت أصوات الرجال تعلو وتنخفض، كل يقاطع زميله ليدلي بما لديه من المعلومات، كل صدر من صدورهم بركان يغلي بالغضب، كأنه لم يتنفس منذ دهر مضى، تلقيت سهام غضبهم على دفتر صغير لا يفارق حقيبتي، دونتها حبراً مسفوحاً يروي صحارى الجهل الذي وجدنا أنفسنا ندور فيها، ضمن رحلة تيه استغرقت ما مضى من أعمارنا، ما وجدنا من تاريخنا فيها سوى زهيرات تتنور في صدور بعض العجائز، محاطة بأشواك الخوف والشك، وفوضى صراع الأجيال، أو بين صفحات كتب تتنقل سراً

وتهريباً من يد إلى أخرى تحت جنح الظلام والرعب، يقرأها قلة قليلة من الناس، ثم يتداولون معلوماتها همساً، سرّني من الرجال هذا الغضب المقدس، وزادني إيمانا بحتمية انتصار ثورتنا مهما طالت المدة وبلغت التضحيات.

بدأت الغوص في أفكاري منسلخة عن حديث الرجال، وكنت أتابع بنظري امرأة تجلس على مبعدة، مولية ظهرها لمجلس الرجال، يحيط بها أطفال أربعة، لعلها تنتظر الحصول على غرفة في هذا الفندق الرخيص، أو تنتظر شخصاً ما، أطفالها ملّوا الانتظار فراحوا يتجولون بين الكراسي والطاولات، تذكرت العم أبا رائد، وكثيراً من الأحاديث التي قالها لي همساً، وهو يتلفت حوله خشية المراقبة، كان ذلك في دائرة عملي حيث اعتدت على استقبال المراجعين والاستماع لحكاياتهم حين يخف الزحام، أدعو المراجع للجلوس على كرسي بجانب مكتبي، فيحكي لي قصة حياته، في الوقت الذي أعمل فيه على إنجاز أوراقه، أبو رائد عجوز مثقف، نال من الشهادات ما لم ينله أترابه، عمل في السياسة زمنا طويلاً، واعتزلها حين طغى حافظ الأسد وتغوّل حزب البعث، وصار العمل السياسي شكلاً من أشكال الخنوع للسلطة الحاكمة.

حدثني أبو رائد عن نهايات الدولة العثمانية مثلما سمعها من أبيه وجده، كانت دولة إسلامية قوية سادت العالم لعدة قرون، قال : لا تصدقي ما هو مكتوب في مناهج المدارس عن التاريخ، كله كذب وزور، العثمانية بدأ ضعفها حين تفشت فيها المذاهب السياسية المستوردة من أوربا، والتي جاء بها الشبان الذين أوفدوا للدراسة هناك، أسسوا أحزابا قومية وعلمانية، نخرت الدولة من داخلها وشتتت الأمة، في سورية ولبنان، وفي مصر أيضاً، جلب الشبان الموفدون للدراسة فكرة مصر الفرعونية، كما جلبوا السينما وشجعوا الراقصات والمغنيات، حتى صارت الواحدة منهن، والتي لا تعرف قراءة الحروف الأبجدية، أهم من أي عالم في كل أصناف العلوم، سألته : أين نجد الحقائق التاريخية لنعرف منها موطئ أقدامنا، ونحدد وجهة انطلاقنا؟ قال مكرراً وصية جدي: ابحثوا.

فجأة دوى في القاعة صوت ارتطام عنيف، جعلني أنتفض هلعاً، وصرخت المرأة برعب، نحن خارجون لتونا من تحت القصف، قذائف، براميل، صواريخ، أبنية تنهار، أشلاء تتطاير أمام الأعين، تلتصق على بقايا الجدران، حتى صرنا نحسب كل صوت قذيفة، التفتنا جميعاً إلى مصدر الصوت، لا شيء، أحد الأطفال أطاح بكرسي فارتطم مسنده الحديدي

ببلاط الأرض، تنفست الصعداء، وتذكرت أني هنا في بلد الأمان، غادرت البهو عائدة إلى غرفتي بعدما طويت دفتري داخل حقيبتي.

نعم أنا في بلد الأمان، ولكن ماذا حلّ بأبي؟ لست أدري، أبي عجوز أمضى شرخ شبابه في الجيش السوري، متنقلا بين دمشق وحماه وحمص وطرطوس، ينقلنا معه حيث انتقل، قبل ثورة الثمانين تقاعد أبي، وعاد بنا إلى قريته التي يعشقها، لم نشهد أحداث حماة، و لا شهدنا انتصاب صنم حافظ الأسد في ميادينها، حين قامت هذه الثورة، كان والدي يعطي للشباب الأغرار نصائح اكتسبها من خبرته العسكرية، وحين انجلت معركة الحفة بتقدم جيش بشار الأسد، جرى ترحيلنا مع العائلات التي استجارت بقريتنا نازحة إلى جبل الأكراد، وظلت الطائرات المروحية تطاردنا من قرية إلى أخرى، وقذائف المدافع بأنواعها تلاحقنا فتصدع الجبال والوديان.

حين تنأى الطائرات ويسكت صوت القذائف، يهمس لي أبي: أعرفك لا تحبين الزحام، تعالي معي لنتنزه ونشاهد الطبيعة، أعادني أبي إلى طفولتي، راح يمسك يدي ويصحبني إلى نبع دورين وساحة الدلبة، تجولنا بين الحقول والبيوت القديمة، كان يشرح لي عن البيوت وأصحابها وتاريخها، عن الأعشاب ضارها ونافعها، وأنا صامتة أفكر بمصيري، ماذا بعد هذا؟ أين

المستقرّ؟ حضرت السيارات الشاحنة وجاء الإيعاز بركوبها، تكدسنا في صناديقها، نساء وأطفال وشيوخ، إلى أين؟ لم يخبرونا، لكن أبي يعرف تفاصيل جبل الأكراد، يعرف القرى بأسمائها وأسماء ساكنيها، قال أبي: هذا الطريق يؤدي إلى قرية (كفرتة).

مجموعة كبيرة من دبابير الأفكار تئزّ في رأسي، جعلتني أذهل عن الطريق وما فيه، بكاء الأطفال وارتجاج الشاحنة منحني جرعة عالية من الصداع، متى نعود؟ وإلى أين نمضي؟ هل بدأت هجرتنا؟ هل جرى احتلال بيوتنا؟ حين خرجت من بيت أبي ألقيت نظرة الوداع على كل الحجرات، على المطبخ وشجرة الياسمين، على مكتبتي وسريري، كنت أشعر أنها النظرة الأخيرة، وأتمنى من أعماقي أن يكذب حدسي.

نزلنا في قرية (كفرتة) في مضافة الحاج ابراهيم، حكى لنا بعض العجائز أن هذه المضافة قائمة منذ أكثر من مئة سنة، مفتوحة أبوابها لم تغلق أبداً، تقدم الطعام والمأوى لضيوف القرية وعابري السبيل، ويشهد على كلام العجائز حجر مثبت على واجهة البناء، منقوش عليه حفراً اسم صاحب المضافة وتاريخ بنائها، وقالوا أنها كانت مقراً لاجتماعات قادة الثورة ضد الاحتلال الفرنسي في غابر الأيام.

عشرات العائلات نزلت معنا في تلك الدار، فتحولت إلى خلية نحل، كل النساء المقيمات والنازحات اشتركن في العمل لإعداد الطعام، عدد هائل من الشباب المقاتل يجب أن يأكلوا، اصطفت مواقد الحطب على طول الجدار الجنوبي للدار، امتزجت روائح الطعام بروائح الغسيل، وانشغلت الشابات بغسل الأواني.

مرة أخرى يصحبني أبي في نزهة يومية بين دروب القرية وبيوتها، يعدد لي أسماء سكانها، ويقص حكايات عنهم، وعقلي شارد يجمع ويطرح، أيام قليلة عشناها في تلك الدار بين الزحام، ثم لحقت بنا الطائرات المروحية برشاشاتها وصواريخها، وانهالت على القرية مدافع الهاون من المنصات التي جرى زرعها في جبل بارودا، قرر أصحاب البيت: لا مقام لنا هنا، سنذهب إلى أقارب لنا في تركيا.

أضمرت في نفسي: سأذهب معهم، لكني لم أخبر أحداً، قال أبي: لن أموت إلا في قريتي، سأعود لأعيش فيها وأموت وأدفن بجانب قبر أبي، ما لي ولشقاء الغربة في هذه المرحلة من عمري؟ بقية عائلتي تريد العودة إلى قريتنا أيضاً، استدعينا سيارة أجرة، طلبنا من السائق تحري أكثر الطرق أماناً.

السيارة تدنو من مشارف القرية، أوصالي ترتجف، جفّ فمي وأوشكت على الإغماء، أهكذا يشعر من يشرفون على الموت؟ ربما، وضعنا متاعنا في صندوق السيارة، سارع أبي وجلس بجانب السائق، جلست زوجة أخي وأولادها في المقعد الخلفي وبقيت واقفة بجانب السيارة من جهة السائق، أحاول تخفيف وقع قراري عليهم قدر الإمكان، أغلقت باب السيارة وقلت للسائق: انطلق على بركة الله، أنا ذاهبة إلى تركيا، انطلقت السيارة وهطلت دموعي، سمعت أبي ينتحب بعلو صوته، ظل نحيبه يقرع مسمعي حتى غابت السيارة خلف المنعطف، استندت بظهري إلى أقرب جدار وغرقت في نوبة من البكاء.

سامحني يا أبي، لم يترك لي الطغاة خياراً سوى هذا القرار، سامحني يا أبي، طفلتك التي كنت تمسك يدها لتأخذها في نزهات إلى كل غابات القرية وأنهارها وكهوفها، تشرح لها أسماء الأشجار والأعشاب الحراجية، تسمي لها الأماكن والطيور البرية، طفلتك هذه شاخت فجأة وغادرتك بلا وداع، لمن ستخبئ في جيبك حبات المشمش والخوخ بعد اليوم؟ لمن ستجلب أزهار النرجس والبنفسج من الغابات؟ سامحني يا أبي، لن أهرع بعد اليوم إلى المطبخ حين أسمع صلصلة مفاتيحك في باب الدار لأجهز لك وجبتك، ولن تشرب الشاي الذي لا تحب شربه إلا من يدي، لن تجد بعد اليوم من

يسامرك في سهراتك ويستمع منك للمرة الألف ربما، قصص الزير سالم وأبي زيد الهلالي، ولن تجد من يشكو لك همه ويضع قلبه على راحتيك، نحيبك ما زال يملأ سمعي ويزيد شقائي.

ما زلت في غازي عينتاب، ما زلت في الفندق، نزعت الستائر عن نافذة غرفتي، أطفأت الأنوار لعل الظلام يساعدني على النوم، سأعود إلى مريم، لا مقام لي هنا، بي رغبة شديدة للقائها، لكن لقائي بها في بيتها كان خاطفاً، مريم دائما مشغولة، تعود من مدرستها لتدور بين بيوت صديقاتها وأصدقاء أسرتها، تحصي ما لديهم من قطع الأثاث التي يمكن الاستغناء عنها، ومن فائض الزاد، ترشدهم إلى بيوت الأسر السورية التي نزحت حديثا وهي محتاجة لذلك الأثاث، وذلك الزاد، مريم كرست نفسها أماً، ليس لي وحدي بل لكل العائلات السورية النازحة.

مريم وأمها، وكذلك أخواتها أمينة وعائشة، نفوس راقية وقلوب مؤمنة، تساندني في غربتي، وتحكي لي عن عشرات العائلات التي مرت بدار أبيها نازحة كنزوحي، هاربة بأرواحها وأعراضها من بطش حكم جائر ما زال يستولي على بلادي منذ خمسة عقود من السنين.

صليت الفجر وجهزت نفسي للسفر، هل نمت؟ لا أدري.. بم كنت أفكر؟ لا أدري، سأسافر إلى مريم، وقبل السفر لا بد لي من وداع الرجل الحزين، أخذت طاولة منعزلة في ركن قصي من مطعم الفندق، تطل على ساحة هي سطح مسجد قريب، طيور الحمام تزدحم في تلك الساحة الصغيرة، تلقط رزقها ثم تطير لترتاح على السطوح القرميدية للأبنية المجاورة، أتراها سعيدة هذه الطيور؟ أم أن حياتها رتيبة لا جديد ممتع فيها؟ غادرت الفندق ومشيت على الرصيف، أتبع الخطوط البلاستيكية الصفراء اللينة الممتدة على امتداد خطواتي، سألت عنها فقيل لي أنها ممرات مخصصة للمكفوفين، يمشون بأمان طالما أن عصيهم تقرع الخط اللدن، وحين ينقطع، يدركون أن الرصيف انتهى، وأن أمامهم نزول درجة، لئلا يتعثروا في مشيتهم ويسقطوا على الأرض، سبحان الله، لقد نال المكفوفون هنا عناية من دولتهم وبلدياتها لم يحصل عليها المبصرون ولا المتميزون في بلادي.

في بداية ساحة السوق تمثال آخر، ما انتبهت إليه من قبل، رسام يفرد أمامه إطار لوحة، ويحمل في يده ريشة، يحدق ذاهلاً في اللا مكان، يفكر خارج الزمان، تمر به جموع البائعين والمشترين، تعبره الوجوه الضاحكة السعيدة والمقطبة الغاضبة والحزينة، يمر به الأطفال حاملين جديد الهدايا واللعب،

وهو غارق في غيبوبة الذهول، لم يجد الشكل الأمثل لرسم ما يدور في ذهنه من أفكار بعد.

أيها الرسام، ألم تجد ما يستحق الخلود في لوحتك؟ هل تنتظر أن ينتهي التمثال المقابل لك من حزنه لترسم إشراقة الأمل؟ كلاكما متحجر في مكانه لا يشعر بمرور الزمن، أيها الرسام، لن تغادر مكانك حتى تكمل لوحتك، هل أعطيك موضوعاً يستحق الرسم؟ هيا ارسمني، عيناي لا تخلفان في حزنهما وذهولهما عن عينيك، جسدي حر طليق وعقلي متجمد في موضوع واحد، هو بلدي الذي غادرته وهو يحترق، هل أقف أمامك لترسمني؟

تمثال الرجل الحزين ما زال جالساً في مكانه، دمعته المتحجرة لم تسقط عن جفنه بعد، أبي لم يكن حزيناً حين فارقته في قرية كفرتة، بل كان مشرق الوجه سعيداً، عيناه تشعان بالفرح مثل طفل عات إليه أمه بعد غياب، إنه عائد إلى بيته، إلى أرضه وأشجاره، سارع بالجلوس قرب سائق سيارة الأجرة وراح يمطره بالطرائف ضاحكاً جزلاً، كم أشفقت عليه من انهيار ذلك الفرح، لكن دروب الحياة كلها سدت في وجهي، لو عدت معه لرجعت للعيش في ظل نظام لم يكتف بالفساد، بل أعلن إجرامه بكل صراحة ووقاحة، لو عدت، لصيرني بوقاً إعلامياً أبّرر جرائمه وأباركها، ولجعلني في يده

عصاً يضرب بها من تبقى من أهلي وجيراني، ولو رفضت لكان مصيري الاعتقال وكلنا يعلم ما يعنيه الاعتقال في سجون الأسد.

هل يرضيك هذا يا أبي؟ أعلم أنك ستبكي كثيراً لفراقي، وأن صوت نحيبك سيبقى مطارق تهوي فوق رأسي تؤلمني في صحوي ومنامي، لكن وجعي هذا ووجعك أخف كثيراً مما أرادوه لنا، أعرف لو أني طاوعتهم لانقلب رضاك عني سخطاً وغضباً، ولو خالفتهم، لكان وجع غيابي عنك في معتقلاتهم يفوق كل أوجاع الدنيا.

سامحني يا أبي، لقد اتخذت قراري بالهجرة سراً، لم أخبرك به كما لم أخبر أحداً، حين أعلن أهل الدار أنهم مهاجرون إلى تركيا، رفعت رأسك ووقفت شامخا كشجرة زيتون مباركة معمرة، ضاربة جذورها في عمق العمق من صخور ذلك الجبل، وأعلنت للجميع: لن أفارق بيتي وأرضي، لن أفارق قريتي وقبر أبي وأمي، لن أعيش وأموت مشرداً، انحنى الجميع احتراما لرغبتك، وبكيت وحدي بعيداً عن العيون.

في دائرة عملي، وقبل معركة الحفة بأيام، سمعت حيدر يقول: فرنسا وعدت العلويين بحكم سورية مئة سنة، وهذه المدة لم تنته بعد، قال نبيل: لن

تنتصر ثورتكم، لن تغلبونا، ستدافع عنا ايران، التي صارت قوة نووية عظمى يعترف بها العالم.

رنين الهاتف يقطع عليّ تداعياتي، أمينة أخت مريم تسألني: هل وجدت أحداً من أهلك؟ أجبتها بالنفي، تقول لا حول ولا قوة إلا بالله، عودي إلينا، قلقنا لغيابك، أين أنت الآن؟ ماذا تفعلين في عينتاب؟ ارجعي بسرعة، نحن أهلك وهذا بيتك، أجل إنهم أهلي، بيتهم بيتي، حنانهم ورعايتهم لي يزيدان في آلام غربتي، كرمهم يخجلني، إلى متى يعيش المرء ضيفاً في بيت مضيفه؟ الأمر طال واستطال، لا بد من حل لعقدتي ولكن كيف؟.

دنوت من التمثال، أمسح دمعته، وأنا أحوج منه لمن يمسح دموع قلبي، ويواسي قهري الذي هدني هداً، لمن يأخذ بيدي، أو آخذ بيده، لنبدأ عملنا في الثورة التي قامت لتقتل فينا الخوف المزمن، انطلقت لتجعل الموت في أعيننا يتساوى مع الحياة، لقد خرجنا من سجن الخوف فهل لنا من عودة؟ وهل يعود الفرخ للعيش داخل قشرة البيضة بعد خروجه منها؟

الرجل الحزين يبتسم لي، نعم رأيت على شفتيه طيف ابتسامة، كأنما يقول لي راضياً: الآن وضعت قدمك على الطريق الصحيح، تعال معي أيها الحزين، رافقني في رحلتي وأرافقك في حزنك، ربما أستطيع تحويل حزنك فرحاً،

تعال معي فدربي طويل، حدثني عن تاريخ هذه البلاد، أنت جزء من ترابها، من حجارتها، لا بد أنك شهدت ما لا يعرفه البشر في أعمارهم القصيرة، هيا معي، أمسكت ذراعه أحاول جذبه لطريقي، لكنه أبى وتمسك بقاعدته، رأيته، كأنما رفع رأسه وحدّق في عيني يريد قول شيء هام، ثم أطرق وعاد لحزنه العميق، فهمت ما يريد قوله، سيقول لملمي شذرات الحقيقة، انظميها بخيط متين وعودي إليّ سأنتظرك هنا، حسناً يا جدي، يا أيها الوجه الشبيه بوجه جدي، سأجمع شذرات حكايتك وأعود إليك، سأنصت لحديث التاريخ، ولسوف أجمع الحقائق من أفواه المعذبين والمهجرين، من ضمادات الجرحى والمعاقين، بل سأبحث بين أكاذيب من يدعون البطولة، ومن كانوا سبباً في تمدد الخراب على مساحة هذه السنوات، لن أسأل واحداً منهم سؤالاً، سأتركهم على سجيتهم يقصون حكاياتهم، لن أخذلك، سأعود إليك، انتظرني هنا، سوف آتيك بحكاية أم هاشم، وأم قتيبة، وغيرهما كثير، إياك أن تبرح مكانك قبل عودتي، سأعود.

* * *

الفصل الثاني

"أزهار الشوك"

يا لهذا الجسد كم أتعبني، ليتني أستطيع الهروب منه، هل يهرب أحد من جسده؟ لقد تمرد عليّ، ما عاد يطاوعني، يرفض كل أصناف الطعام، يرفض الماء، كما يرفض النوم، أوصالي ترتجف إعياء وإرهاقا، وما حولي أحد أستشيره في أمري، نحن يا أبي في غربتنا مثل أزهار الشوك، والتي يسميها البعض دموع الشمس، تحملها النسائم كالفراشات، يركض خلفها الأطفال، ينفخون عليها ليغيروا اتجاه طيرانها، يضحكون بفرح، اذ يزيدون في طول رحلتها، تتجمع في الزوايا ثم تفرقها الرياح، أرى بعضها أمامي، في محطة السفر وأنا عائدة إلى مريم، حيث لم يبق لي مأوى في أرض الله الواسعة سوى بيت مريم، أقف جامدة، أنتظر وصول الحافلة التي ستحملني مع خيبتي إلى مريم، أراقب دموع الشمس، تلتصق أوبارها بالأرض، تمسك بها قطرات عصير دبقة انسكبت من علبة يحملها طفل راكض، بعضنا، بل كثير منا، التصق بالأرض، أمسكت به بقع من الدماء، سفحها من لا يؤمنون بالأرض ولا بالإنسان، ولا بخالق الأرض والإنسان.

في أحلام المنام هذه الليلة رأيتني أتسلق جرفاً صخرياً هائلاً، لونه بلون صخور الشقيف في قريتنا، شديد الخشونة، شديد الوعورة، بلغ مني الجهد مبلغه، التفت للخلف، ورائي هاوية بعيدة القرار، واد عميق لا يكاد يدركه بصري، الهلاك يقبع لي في دربه، ارتجفت رعباً، ما عاد أمامي أي خيار سوى إكمال رحلتي إلى قمة الجبل، معي متاع يثقل خطوتي ويعيق تقدمي، ما نفع المتاع الآن؟ ألم أشاهد بعيني عشرات الحقائب والأكياس وصناديق الكرتون ملقاة على جانبي طريق هجرتي؟ أما استغنى عنها أصحابها وتخلوا عما تنطوي عليه من زاد وملابس وربما الهدايا والصور والذكريات ليصلوا إلى حيث يجدون الأمان لهم ولأطفالهم؟ تخليت عن متاعي ونظرت للأعلى، يدان تمتدان إلي لم أر وجه صاحبهما، أمسكت بهما وتابعت خطواتي، وصلت إلى قمة الجبل وتنفست بارتياح.

هذا ما كان في نومي، فما هو تفسيرك يا جدي؟ هل أتابع التنقل بين القمم بحثاً عن الحقائق كما أمرتني؟ هل ألتفت للخلف، للوادي العميق الذي فيه هلاكي؟ هل أبحث عن الحقائق حولي وفي واقعي؟ أم أعود للتاريخ قديمه وحديثه امتثالاً لقولك (من يجهل التاريخ لن يفهم الحاضر، ومن لا يفهم الحاضر لن يبني المستقبل).

الرجل الحزين الشبيه بجدي، الجالس في ساحة غازي عينتاب كان بالأمس باسماً، أو هكذا خيل إلي، زرته لأودعه، ما كان باسما كما ظننت، دمعته المتحجرة في زاوية عينه كانت أكبر حجماً، هل مر به شخص آخر استدر عبرته؟ أم أنني ضاعفت أحزانه بحيرتي؟

قطعت الطريق إلى انطاكية أغالب خيبتي، كنت أتمنى أن أجد عملاً، أو أجد أحداً من أهلي لعلي أخفف عن مريم عبء إقامتي في بيتها، رحت أصارع خجلي من كرمها وأهلها، خجلي من اهتمامهم الزائد بي وبكل أقراني من السوريين النازحين، رجعت، لأقيم في بيتها مدة إضافية لا يعلم إلا الله نهايتها.

النهار في ثلثه الأخير، ما زال لدي متسع من الوقت، أين أمضيه؟ ما أصعب أن يعيش المرء بلا مأوى يعود إليه، بلا حلم يغمض عينيه ليتخيله، أطلقت زفرة حارة ونظرت إلى السماء، كان الهلال خيطا رفيعا أبيض لا يكاد يُرى، يبتسم لي بجلال من عليائه، كأنما يقول: أنت الآن مثلي، بعيدة وحيدة لا يراك أحد، أنا أنتظر الليل لأفرد نوري على الكائنات، وأنت، انتظري فرصتك، كل شيء جميل في وقته، وقتي الآن ما الذي يناسبه؟

مشيت في السوق على مهل، ليس لي هدف أسعى إليه، أتلفت حولي وأوغل في الغوص داخل نفسي، أتساءل ما الذي يجب علي عمله؟ ما هي إمكانياتي؟ أين هو الفضاء الذي سأعمل فيه؟ ما أصعب أن يتجمد الخيال على أعتاب الواقع المرير، لا بد من ثورة فكرية تمشي إلى جانب هذه الثورة لتغير ما ورثناه خلال العقود الماضية من مفاهيم فرضها علينا حزب البعث، الذي زج قسراً الملايين من أبناء سورية في صفوفه، تساءلت يوماً، ما جدوى وجود هذه الملايين في صفوف حزب البعث وهم لا يؤمنون به ولا يحضرون اجتماعات ولا يشاركون في نشاطات، هم فقط يدفعون الرسوم حين يحتاجون استخراج أوراق رسمية من أجل العمل الوظيفي أو الدراسة في الجامعات، كان الجواب الصاعق، أن حزب البعث لا يسمح بمشاركة أعضائه في حزب آخر، وهذا يعطل كل عمل سياسي في البلاد، نعم فهمت الآن هذا التخبط في ثورتنا، نحن نعاني من الأمية السياسية، بل والأمية الوطنية.

هنا، أرى الناس يصطفون في طوابير منتظمة أمام أبواب الأفران، وشبابيك البريد، ونوافذ البنوك، لا يزحم أحد أحداً، كل ينتظر دوره بأدب واحترام، بل أرى مريم، تحمل قمامة بيتها لتضعها في الحاوية، ولا توكل هذا الأمر للخادمة احتراما لإنسانيتها، تقول مريم، هذا شارعنا، وهذه حارتنا، نظافتها دليل على نظافتنا، نحرص على تقديم صورة جميلة للعالم عن

حضارتنا، وفي بلادي، اختلطت المفاهيم، بفعل المناهج المدرسية ووسائل الإعلام، وسلوك رجال الدولة وموظفيها المتسم دائما بالانتهازية والبطش، يمارسها على الشعب المغلوب الذي ما عاد يفرق بين الوطن والسلطة الحاكمة، السلطة حصرت مفهوم الوطن برجل واحد، بصنم كرسته للعبادة وإذلال الناس، وهي على ثقة بأن كل الناس له كارهون، السلطة أفهمت الناس بأن المال العام، والمرافق العامة كلها ملك لها، وهي ملك للصنم، فراح الناس ينتقمون لأنفسهم بتخريب المرافق العامة ونهب ما يستطيعون نهبه من المال العام، يسرقون الكهرباء والماء، يخلعون بلاط الأرصفة، يكسرون أبواب ونوافذ المدارس والدوائر الرسمية البعيدة عن مراقبة أعين المخابرات، وربما يخربها صبيان المخابرات وأبناؤهم، إذ يعتقدون أنهم هم الدولة، وأن هذه المرافق جزء من أملاكهم.

مثل واحدة من أزهار الشوك أنا، تحملني تيارات الهواء إلى حيث لا أدري، أهيم على وجهي وحيدة في بلاد الله، لا يراني الكبار ولا يلتفت إليّ الصغار، قادتني قدماي إلى نهر العاصي، أسندت ذراعي إلى حديد السور، وغرقت في حديث الذكريات مع نفسي، كان دربي إلى مدرستي في مدينة حماه يمر بحذاء هذا النهر، كنت أتوقف كل يوم كوقفتي هذه، أتأمل الخضرة في حديقة أم الحسن، وأخشع أمام جلال النواعير، أتساءل لماذا تطلق أنينها الباكي وكل ما حولها يدعو للفرح؟ ما كنت أعرف حينها أي تاريخ شهدته هذه الأوابد جعلها دائمة التوجع و الأنين.

كنت طفلة، لم أختبر من الحياة سوى ما حفظته من كتب المدرسة، قصائد تمجد جمال الطبيعة في كل الفصول، فراشات تحادث زهيرات الأقحوان، عصافير تحتمي بالأشجار وتغني لخدود الورد، أقف عند السور لأصغي لهمسها وأغنياتها، أتخيلها ترحب بقدومي، وتهمس لي بأسرار جمالها، أتجاوز السور بنظري لأراقب أسرب البط والإوز تسبح في البرك المخصصة لها، ثم تخرج لتنفض ريشها بسرور على حافة الماء، أمشي بحذر ناظرة إلى مواطئ قدمي كيلا أدوس العشب، أو نويرات الأقحوان، لأني قرأت في المدرسة أن لها إحساساً مرهفاً، وأنها تنظر دائما إلى السماء تشكر الله على فضله ونعمته.

كنت أقف أمام السور وأردد قصيدة أندلسية أحفظها من كتاب المدرسة: روض أظله دوح عليه أنيق.. مورق الأفنان.. والماء يجري، وعائم وغريق من جنى الريحان، أحدق في الماء بحثاً عن جنى الريحان، لست الآن تلك الطفلة، ولا أنا في حماه، أنا في أنطاكيا، الثورة اشتعلت في بلادي وحرب الحاكم على شعبه دمرت وتدمر كل ما يمكنها تدميره، أنا هنا على سور العاصي، أحدق في مائه بحثاً عن بقايا دماء وأشلاء ربما علقت به وهو يعبر مدننا المنكوبة، القصير، حمص، حماه، جسر الشغور.

يرن هاتفي قاطعاً عليّ تداعيات أفكاري، إنها مريم، أختي التي لم تلدها أمي، تخاطبني بلهفة، تخبرني أن غيابي قد أقلقها وأقلق أسرتها، تسألني عن سبب تأخري، وتخبرني أنها أجلت وجبة الغداء لحين وصولي، أسعدني هاتف مريم، حمدت الله أني لست وحدي في هذا العالم، هنالك من يسأل عني ويقلق لغيابي، ليست مريم وحدها، بل أختها أمينة، وأمها العجوز المقعدة، وإخوتها الذين لا يغيبون يوما عن بيت أمهم، وأنا لا أملك ما أرد به جميلهم سوى أن أرجو الله أن يجبر خاطرهم بأكثر مما يجبرون به خاطري.

الشمس نزلت إلى مستقرها اليومي وراء الجبال العالية، وما تزال بعض أشعتها توشي بالحمرة حواشي الغيوم البيض المتناثرة في الفضاء، لتعلن أن النهار لم ينقض بعد، مازالت هنالك بعض الدقائق قبلما تغلق الأسواق أبوابها ويعود الناس لمنازلهم، المصابيح الملونة الباهتة في نهاية النهار تعكس أنوارها على برك الماء في قاع النهر، يرتعش سطح الماء فألمح في ارتعاشاته وميض فرح، أعد نفسي بفرح يهز أعماق الروح ويضيء ظلمات النفس، حين أعود إلى وطني وقد تحققت أهداف الثورة، واغتسلت البلاد من أدران ظلم عاش عقوداً من السنين يرتع في مرابعها.

موقف الباص قريب مني، ركبت الباص لأعود إلى بيت مريم الذي صار بيتي، ما كانت مريم وحدها في البيت، كما لم تكن وحدها أبداً، في حديقة

بيتها كانت تجلس ميرفت الحمصية، ومنى الدمشقية، وأم مصعب التركمانية، وكلهن نازحات من سورية، ميرفت وصلت إلى تركيا قبل أشهر، كانت في حالة من الكآبة الشديدة، احتضنها مريم وقدمت لها الكثير من الأشياء، لكن ذلك لم يخفف عنها شيئاً، استدعت مريم امرأة من أهل قريتنا، أم جميل من آل السعيد، ممن هجروا إبان ثورة 1980، حكت لها أم جميل الكثير من التفاصيل عن هجرتها وعذابها مع أهلها، شدت من أزرها وأفهمتها أن كل العذاب يهون أمام الهدف العظيم الذي قامت لأجله الثورة، وها هي ميرفت، تضحك من قلبها، وتبدو سعيدة بما وصلت إليه، برغم خسارتها لبيتها وسيارتها ومعمل زوجها.

* * *

تركتُ البهو الكبير بمن فيه وذهبت إلى الغرفة التي أنام فيها كل يوم مع مريم في سريرين متجاورين، اعتذرت لهم بأني مرهقة أتعبني السفر، أطفأت الأضواء ولجأت للسرير، هل لمثلي أن تنام بعد الحصار الذي أطبقه عليّ مجموعة الساهرين في بيت مريم؟ كان الحديث كله يدور حول الثورة السورية، وكانوا يعتبرونني ممثلة للثورة في مجلسهم ذاك، ينبشون أخطاءها ويرمون بها في وجهي كأني مسؤولة عنها، بل كأني قادرة على إصلاحها.

كان البهو مزدحما بالساهرين، كلهم ينتظرني، شعرت بصدق مودتهم، وبصدق تعاطفهم مع قضيتي، سألوني إن كنت قد عثرت على أحد من أهلي وأقاربي، أحزنتهم خيبتي، دعواتهم الحارة لله أن يجمعني مع أهلي أثارت غصة في حلقي، كتمتها ومشيت معهم في دروب التفاؤل والأمل، بعد رحلتي الأخيرة إلى استنبول لم أجتمع معهم، لذلك قذفوا في وجهي ما اختزنوه من الأسئلة، كان الأستاذ أحمد، المعلم المتقاعد أكثرهم حماساً، بوجهه المحتقن والعرق المتصبب على فوديه الأشيبين، راح يطلق الأسئلة نيابة عن كل الحضور، وكل الأنظار متجهة نحوي تنتظر إجابة شافية.

الأستاذ أحمد قال بأن علينا العمل على توحيد الصفوف في الداخل، واختيار قيادة مناسبة تثق بها كل الأطراف، يجب أن يكون للثورة صوت

واحد، لا تمييز لأحد على أحد، ولا فصيل على فصيل إلا بمقدار كفاءته وما يقدمه للثورة، يجب استبعاد الشعارات المتطرفة، التي أحرقت أوراق الثورة لدى الشرق والغرب، وعززت موقف النظام أمام العالم، النظام الحاكم استفاد من تلك الأخطاء وادعى أنه يحارب الإرهاب، يحارب العصابات التكفيرية المتطرفة، ذريعته أن كل المظاهرات انطلقت من المساجد، والجميع يعلم أن المساجد هي المكان الوحيد المتاح لاجتماع عدد من البشر، والثوار ما يزالون يرفعون الشعارات الدينية، بل يصرون عليها ويتمسكون بها.

قال كثيراً، ودعمت أقواله مداخلات ومشاركات من الحاضرين، قالوا بأن على الثورة استيعاب المطالب الشعبية، وترتيب الأولويات جيداً، لقد رفعتم شعار الإسلام هو الحل، وتطبيق الشريعة في مجتمع غير مهيأ فكريا واجتماعياً لهذه الشعارات، كان يجب الاهتمام بتأمين الخبز، ورفع مستوى المعيشة للمواطن، تحسين الرواتب وتوفير فرص العمل للعاطلين، إلغاء المحسوبيات والأفضلية الطائفية في توزيع المناصب، توفير الخدمات الطبية المجانية لكبار السن والمعاقين، هذه شعارات تمس المشاعر الإنسانية، لأن الإنسان يفكر بلقمة عيشه وحاجاته الضرورية، من يوفرها له سيهبه كل مشاعره وولائه، الجائع لا يسمع ولا يرى يا أختي.

صدقت والله يا أستاذ أحمد، ولكن من منهم سيستمع لهذا الكلام؟ ما الذي أستطيعه ولم أفعله؟ أعلم، كما يعلم الكثير من شعبي أن الشعارات المتطرفة أطلقتها المخابرات، وتلقفها الجاهلون من شبابنا، المتعطشون للإسلام، الثائرون الذين لا يملكون من مقومات الثورة سوى الحماسة وإرادة التغيير، ولكن كيف؟ ما هي الصورة التي يريدون؟ معظمهم لا يعرف، ولا يقدر على تخيل الصورة البديلة، يريدون الخلاص من حكومة أذلتهم وأهانتهم وأفقرتهم، ولم يفكروا في ما بعد الثورة.

لم أطرح عليهم أمنيتي هنا كما طرحتها هناك في استانبول، هناك، قلت لهم ليت تركيا تساعدنا في هذه الثورة، انتفض أحدهم غاضباً:

- وكيف تساعدكم؟ أكثر من هذا؟ لقد فتحت تركيا حدودها، استقبلت ملايين النازحين السوريين، قدمت لكم المخيمات والمواد الغذائية، سمحت للسوريين بالعمل في مدنها، ماذا بعد؟ هل تريدين دخول الجيش التركي ليحارب بدلا عنكم؟
- نعم.. أتمنى هذا، ولن تنتهي هذه الأزمة إلا بدخول الجيش التركي، عذراً سيدي أنا لا خبرة لي بفنون الحرب والقتال، ولا خبرة لي في ميدان السياسة ولعبة الأمم، كل رصيدي من هذا وذاك أفكار

علقت في ذاكرتي من كتب قرأتها.. لكني يا سيدي أعرف مجتمعنا، أعرف تفاصيله بدقة، خمسة عقود عمل فيها حزب البعث على هدم القدوات الصالحة، وتشويه سمعة كل إنسان شريف، خمسة عقود عمل فيها على تنسيب الملايين من الشعب السوري لصفوفه، وعمل على تحويلهم إلى مخبرين وجواسيس له على أهاليهم في قراهم ومدنهم وأماكن أعمالهم، والخلاصة.. لقد ماتت الثقة بين أفراد شعبنا ولن يبرز من بينهم قائد يرضي الجميع، سيغني كل فريق منهم في واديه ولن يجتمعوا أبدا، لذلك أتمنى، وأرجو...

- وهل تعتقدين أننا نعيش في زمان حروب القبائل؟ دخول الجيش يتطلب الكثير من التوافقات الدولية، والغطاء الدولي و...
- على كل حال أنا لا أبتكر شيئا من عندي، أنا أعيد رجاء وفد من كبار رجال جبل صهيون وجبل الأكراد، حملوا تواقيع سكان قراهم على عريضة تطالب بضم المنطقتين إلى الدولة التركية، وذلك في بداية الاحتلال الفرنسي وتقسيم سورية إلى دويلات طائفية، جلبوها إلى تركيا، لكن الحكومة التركية آنذاك اعتقلت أفراد الوفد جميعاً لمدة ستة أشهر ثم طردتهم إلى بلادهم، ذلك الوفد فشل في طلبه، وأنا باسم سكان المنطقتين أكرر الطلب.

لا أعلم بم أكمل ذلك الرجل كلامه، طغت عليّ خيبتي فما عدت أنتبه لما يقول، لكني طويت صدري على أمنيتي ولذت بالصمت، أما هنا في بيت مريم فأجد نفسي في حصار الأسئلة، سألتني عائشة، فتجاهلت سؤالها وما رددت عليه، سألتني ماذا فعلت في استنبول ومن قابلت هناك؟ هل كان عليّ إخبارها بأني حضرت هناك مؤتمراً لإعادة إعمار سورية، في فندق فخم، ما كنت مدعوة إليه، لكني حضرته إذ أخبرني به بعض السوريين هناك، هل أنقل لها ما سمعته من مخططات ومشاريع وأحلام؟ لن أنقل لها خيبتي، فلقد طلبت الإذن بالكلام فأنصتوا، قلت لهم قبل التفكير بإعادة الإعمار علينا العمل لوقف الهدم، للحفاظ على ما تبقى من الحجر، أما حقيقة إعادة الإعمار فيجب أن تبدأ بإعادة إعمار الإنسان، وتجديد بنائه الفكري، قلت لهم يجب البدء بتنوير هذا الشعب وتغيير الفكر الاستسلامي الذي طغى عليه في العقود الماضية، تقولون الشعب ثار، ونفض عنه رداء الخنوع، نعم ثار، لكن الأمور ليست واضحة أمام فكره، وهو لا يدرك إلى أين ستصل به هذه الثورة، أو يصل بها، عليكم، وعلينا، أن نرسم صورة الوطن الذي نتمناه، ونقدمها للشعب، للشباب والأطفال، للمقاتلين في الجبهات، يجب أن نحدد لهم الاتجاه الصحيح، والدرب السليم لبناء وطن ومجتمع يخلو من أمراض الحقبة السابقة.

كلامي لم يعجب أحدا منهم، كان ردهم أن هذا المؤتمر مخصص لإعادة إعمار القرى والمدن، لإقامة مشاريع عملاقة، لجذب المستثمرين من كل بقاع الأرض، ليشاركوا في هذه المشاريع.

تريدون الاستثمار؟ استثمروا في مشاريع لتشغيل اللاجئين، وخاصة النساء الأرامل في المخيمات، لقد بليت ثيابهن على أجسادهن، فعمدت بعضهن إلى نسيج خيمتها، اقتطعت منه أجزاء فصلتها ثوبا يستر عريها، كما عمدت غيرها لنسيج البطانيات ففصلته ثيابا لها ولأطفالها، اعملوا لهن مشاريع، تحولهن من موقع انتظار الصدقات والمعونات إلى موقع الإنتاج، في بعض المخيمات بدأنا مشاريع لنسج الصوف بطريقة يدوية، ليتكم تساعدونا في إيجاد أسواق لتصريف هذه المنتجات.

رئيس الجلسة امتعض من كلامي، لم يعجبه، بينما أشار إلي آخرون أنهم سيتكلمون معي بعد انتهاء الجلسة، كأنهم وجدوا في كلامي ما أسال لعاب جيوبهم المتخمة، والجائعة دوماً للمزيد.

في الفسحة بين الجلستين تحلق حولي عدد من الرجال يستفسرون عن مشروع تشغيل نساء المخيمات، طلبوا مني إعداد دراسة علمية للجدوى الاقتصادية للمشروع، وتبرعوا بإرسال مديرين من قبلهم ليعملوا فيها، لكزتني

خديجة، تلك المرأة الحاملة هم الوطن والثورة، المناضلة العنيدة الصادقة، ضحكت ساخرة وقالت يا لهؤلاء التجار، يتفاوضون على ثمن جلد الدب قبل اصطياده، وقالت انتبهي، هؤلاء وجدوا وجبة جاهزة، ويرون أنفسهم أحق بها من سواهم، ما أكرمهم، قالت خديجة هازئة، سكان الخيام بليت ثيابهم ولا يجدون بديلا لها، ولا نقود في أيديهم، أين كان هؤلاء الاقتصاديون والدارسون؟ لم لا ينشئون مصانع قريبة من المخيمات لتشغيل النساء والأطفال؟ الأمر لا يعنيهم، بل يفكرون باجتذاب مستثمرين من أصحاب الأموال المسروقة من دماء شعبنا وأقواته.

قالت أيضاً، هؤلاء سيتاجرون بالمخيمات وبالخيام إن استطاعوا إخماد الثورة، لقد تحولت سورية إلى فلسطين أخرى، الكل يرفع الشعارات البراقة ويتاجر بالقضية، ولا يكترثون للوضع المأساوي للشعب طالما أنهم يرتاحون في فنادقهم، ألا ترين في بطانة كلامهم أن كلاً منهم قد وعد نفسه بمنصب كبير، ويتصرف كأنه مسؤول معين من قبل دولة البعث؟ هؤلاء عاشوا عمرهم نكرات، وفجأة، مع قيام الثورة وجدوا المال والفنادق الفخمة وتذاكر الطيران، كما وجدوا القنوات الإعلامية تتسابق لإجراء مقابلات معهم، صار واحدهم لا يسمح للمواطن العادي بالاقتراب من حدود سيادته، بل يعتقد أن كل من بدأهم بالسلام يتسول منهم المال، هؤلاء طفيليو الثورة، لا

تتعاملي معهم، يعتقدون أن أموال الثورة أعطيت لهم لينفقوها على أنفسهم، ويحسبون كل من يدنو من حدودهم يريد مشاركتهم بها.

تخبرينني يا خديجة، وكأني لا أعرفهم، أنا لا أتعامل معهم، بل إني أبدأ كلامي مع كل منهم بأني لا أريد نقوداً، مع ذلك يردون علي بأنهم ليسوا على استعداد لتقديم أي شيء.

خديجة امرأة حادة الطبع صريحة العبارة، خرجت مع أسرتها من سورية في ثمانينات القرن الماضي، إبان الثورة التي سبقت هذه الثورة، كانت شابة صغيرة تابعت دراستها واهتمت بكل كبيرة وصغيرة من أمور السياسة، كانت ناقمة على سوء تصرف بعض الكبار، أتقنت اللغة التركية واشتغلت بالتعليم في مدارس استانبول.

في استانبول التقيتها، سرعان ما أحببتها، إذ وجدتها عالمة بكل ما أبحث عنه، تبادلت معها أرقام الهاتف، وصارت بالنسبة لي معلماً هاماً من معالم هذه المدينة العظيمة، كثيراً ما أرجع إليها، أسألها، أستشيرها بكل ما أنا مقبلة عليه من عمل، أستوضحها ما غاب عني وعن أبناء جيلي من معلومات، بحكم الحصار الثقافي الذي فرض علينا بعد الثورة الأولى، لم يترك لنا النظام الحاكم من أدوات المعرفة سوى قناته التلفزيونية الوحيدة، تبدأ برامجها في

المساء، لتصدع رؤوسنا بمشاهد الاحتفالات بأعيادهم (الوطنية) المنبثقة كلها عن (الحركة التصحيحية المجيدة) وكل الشعب الصامت يعرف حقيقة مجدها، تلك الحركة التي تخلص بها حافظ الأسد من أصدقائه الذين ساعدوه في الوصول إلى ما وصل إليه، أما الكتب فلها شأن آخر، كثيراً ما كانت دوريات المخابرات تقتحم البيوت التي تحوي مكتبات لتفتيشها، ومصادرة ما لا يعجبهم فيها، بل واعتقال أصحابها، وامتلأت المراكز الثقافية الرسمية بالأدب الروسي والأوربي المترجم، إلى جانب الكثير وأكثر من الكثير من المطبوعات التي تتحدث عن حياة وبطولات ومنجزات حافظ الأسد وابنه باسل، ورفعهما إلى مرتبة الألوهية، ومطبوعات أخرى من أدبيات حزب البعث لا يقرأها أحد، بل تباع بشكل إجباري للمواطنين، وخاصة أصحاب رؤوس الأموال من تجار وصناعيين، لقاء مبالغ باهظة، ولا يجرؤ أحدهم على رفض ذلك الابتزاز، لئلا يطعن في وطنيته!. كما توزع قسراً على الموظفين، ويحسم ثمنها من رواتبهم عند المحاسب.

ما حكيت لعائشة في تلك السهرة ما جرى معي في استنبول، ولا حدثت الساهرين عن صديقتي خديجة، إذ عاد جسدي ليتمرد عليّ، ويخرج عن إرادتي، شعرت أني أكاد أفقد توازني، وأن قلبي يركض بين ضلوعي يريد الفرار، ولكن إلى أين يا قلب؟ ليس لنا مهرب، فهنا، في بيت مريم، هنا

الأمان، هنا الأسرة المحبة المتحابة، أليس هذا ما كنا نبحث عنه طوال العمر؟ بلى إنه هو فلم القلق؟ ما الذي يثير لديك كل هذا الاضطراب؟ اتركني أرجوك، أريد أن أنام لأرتاح، عساني أجد في أحلام المنام ما يعيد لنفسي صفاءها، أو اهدأ قليلا واتركني لأفكر.

أليس الجسد كتلة واحدة إذا اشتكى منه عضو تداعت سائر الأعضاء بالسهر والحمى؟ شرارة كالتيار الكهربائي راحت تضرب باطن قدمي وتنتشر في كامل الساقين، أصوات الساهرين ما زالت تصلني من البهو الكبير، لا أريد إزعاجهم بآلامي، ولكن لا بد من عمل شيء يعينني على الصبر، كأس الماء قريب من متناول يدي، أخذت قرصا مسكنا ورجعت للسرير، طبيب أسرتنا الدكتور عبد الكريم كثيراً ما ردد أمامي أن خير علاج للوجع هو نسيانه وتجاهله، سأعالج نفسي بهذه الطريقة التي ما عدت أملك سواها.

بحثت في ذاكرتي عن ومضات سعادة مرت في حياتي فما وجدت شيئاً يذهب عني ما أعانيه، رجعت إلى الأمسيات الأدبية والمهرجانات الثقافية التي شاركت فيها، في إحداها، وبعد الانتهاء من أعمال المهرجان اصطفت الباصات الكبيرة أمام البوابة، الكل يعرف إلى أين المسير، إلى القرداحة طبعاً لزيارة قبر حافظ الأسد، بعد سنوات مرت على وفاته، ركبنا الحافلات، كنا نتحدث طوال الطريق كأننا ذاهبون في رحلة استجمام، حين توقفت

الباصات ونزلنا شعرت بخوف، العساكر بلباسهم الميداني وأسلحتهم ينتشرون كالجراد في المكان، بالإشارة، وبلا أي صوت، جعلوا النازلين من الحافلات يصطفون صفا أحادياً، مشى أمام الصف عسكري وأشار بيده أن اتبعوني، تبعناه، وكان أمام باب الضريح عسكري آخر، يقدم فناجين القهوة المرة لكل فرد منا قبل دخوله الضريح، شربنا القهوة ودخلنا، القبر طويل جداً، ليس كالقبور التي نعرفها، بل يغوص تحت مستوى الأرضية بمقدار ذراع، أوقفونا صفا يحيط بالقبر، لنقرأ الفاتحة على روحه، رفع الجميع أكفهم، كان يقف إلى جانبي محمود، وهو طبيب من أبناء حمص، قلت له هامسة ألا ترى هذه العجيبة؟ إن حافظ أسد الشخص الذي يرتعب الجميع لدى ذكر اسمه يتمدد الآن تحت أقدامنا، بل تحت مستوى أقدامنا، قال ليس في هذا أي عجب، بل العجب أن تكون جثته قد تحللت، وما زال يحكمنا من تحت أقدامنا، هل تعتقدين أن بشار هو من يحكم البلاد؟

انتهت السهرة في البهو الكبير، غادر الساهرون البيت، وأغلق الباب، سارعت بتغطية وجهي لأتظاهر بالنوم، استلقت مريم على سريرها، وسرعان ما غرقت في النوم، هنيئاً لها هذا القلب الصافي والروح الطاهرة، ليتني مثلها، آلاف الأفكار والهموم تنتظرني كل يوم تحت وسادتي، تنتظر أن أسند رأسي لتخرج وتبدأ صراعها، ومهرجانها، أنتظر هدوءها لأنام، فلا يطيب لها الهدوء قبل الفجر.

* * *

مع إشراقة شمس نهار العيد امتلأ منزل مريم بالضيوف، إخوتها وأولادهم وبناتهم، أحفادهم وأصهارهم، الكل يرتدي أجمل الملابس الجديدة الأنيقة، تغمر وجوههم فرحة ظاهرة، وتجمع بين قلوبهم محبة أراها جلية في حركاتهم وكلامهم وأفعالهم، أما أنا، اللاجئة الغريبة فلم أجد ما يفرحني بالعيد، بلادي تغرق في حمام من الدماء، أهلي توزعوا بين القبور والسجون والمنافي، لا مكان لي في هذا العيد، لن أمكث بينهم لأكدر فرحهم بحزني.

استأذنت مريم، أريد زيارة أسامة السيد في منزل أهله بمدينة الريحانية القريبة، أسامة أخبرني أن أمه جاءت من المخيمات مع أسرتها لتسكن قريبا منه، تعتني به ريثما تشفى جراحه، أسامة هذا جاء جريحا من جبهات القتال، مثل عشرات الجرحى، ما معه أحد من أهله، وما معه أية نقود، كنت أزوره في مستشفى الدولة في أنطاكيا، ثم في دار الاستشفاء التي أقامتها منظمة الـ: "إي ها ها-IHH" لإيواء الجرحى الذين لا يحتاجون للمراقبة المستمرة، ولم يتم شفاؤهم بعد، كانت ترافقني أمينة أخت مريم في تلك الجولات، تترك بيتها وأولادها لترافقني، كانت أكثر حناناً مني على أولئك الشباب المصلوبين بين الأجهزة الطبية.

لابأس بمكوثي مع أسرة أسامة ريثما ينقضي العيد، وجعنا واحد وأملنا واحد، الحافلة تدنو من مشارف مدينة الريحانية وهاتف أسامة لا يرد، ما عرفت السبب لكنه أقلقني، لا أعرف كيف أصل إلى منزلهم لأتفقد أمه الحاجة زينب، لأواسيها في العيد بعدما استشهد واحد من أبنائها، ، بطارية هاتفي فرغت من الشحن وانطفأ جهازي، صارت صعوبة البحث عن أسامة أكبر، لن أضيع، لا بد أن أجده في إحدى المستشفيات، أو أجد من الجرحى من يعرفه ويوصلني معه، لاحظت أنَّ معظم الركاب يتكلمون العربية بلكنة بدوية، أطلقت سؤالي: هل يعرف أحد منكم أين يجتمع الجرحى السوريين في الريحانية؟ أشار أحدهم إلى يمين الطريق، قال هنا دار لإيواء الجرحى، لعلك تجدين جريحك فيها، حين نصل إليها سأخبرك، تدخل رجل ستيني من الركاب، ليطرح أسئلته: هل الجريح ابنك؟ لا ليس ابني، أين أولادك؟ ليس لي أولاد، أين زوجك؟ ليس لي زوج، قال لا تخافي، لن أتركك حتى أوصلك مأمنك، أنا سوري مثلك، لدي ولد جريح، لكنه ليس هنا، بل في استانبول، شكرت مروءته، وأبلغته أني أحسن التصرف وحدي، لا حاجة لي بمرافق في هذه البلاد.

نزلت من الحافلة حيث أشار لي سائقها، هناك مستشفى الأمل، ونزل معي ذاك الرجل ذو الأسئلة الكثيرة، في المستشفى لم أعثر على أسامة، قال

لي أحد الجرحى ربما تجدينه في دار الاستشفاء التي أقامها رجل سوري يسمى الحاج ضاهر في أول البلدة، رجعت، ورجع معي، لعله يبحث عن جريح ضائع كما أبحث، وما أكثر الضائعين من السوريين، وما أكثر الجرحى الذين لم يتمكنوا من التواصل مع ذويهم.

على واجهة البناء لوحة تقول (دار الذين سبقتهم أطرافهم إلى الجنة) كدت أبكي تأثراً من هذا العنوان، ولكن من المؤكد أن أسامة ابن قريتي ليس هنا، إصابته كانت رصاصات فتتت عظم الساق لكنها لم تؤد للبتر، لا بأس سأدخل الدار لأطلع على ما فيها، ومن فيها، ولأتخلص من هذا الرجل الذي يمشي معي كالظل الثقيل.

في غرفة الإدارة ألقيت التحية، فجاءني الرد من الرجل المهيب الجالس وراء المكتب بلهجة حموية عريقة أيقظت في نفسي فرح الطفولة، وجعلتني أشعر بالأمان، أشعر أنني في مكان يخصني، وبين أهلي، كم أشتاق إلى حماة وأهلها ولهجتها، عرفت بنفسي، دعاني الحاج ضاهر للجلوس فجلست، حدثتهم عن مدينة حماة وحنيني إليها، دار الحديث وطال، سألتهم عن فترات مظلمة من تاريخ حماة، سكت عنها الكبار وغيبوها عن الأجيال التي تلت أجيالهم، قال الحاج مسلّم: هذا أبو علي، سيحدثك بكلّ ما تريدين، هو شاهد عيان على كل تلك الفترة، ومشارك في الكثير من أحداثها.

رد أبو علي بانفعال: عن أية مرحلة من التاريخ تريدين الحديث؟ أجبته: حدثني عن بداية الثورة، قال الثورة لم تبدأ الآن، الثورة قائمة منذ انقلاب حزب البعث واغتصابه للسلطة في سورية، اذ رفضت كل القوى السورية الوطنية ذلك الانقلاب، الحكومة فرضت حل جميع الأحزاب بما فيها جماعة الإخوان المسلمين، الشيخ مروان حديد رفض القرار، وانفصل عن جماعة الإخوان ليؤسس جماعته وثورته، واتخذ من جامع السلطان مقراً له، كان يظن أنه يستطيع بالاعتصام والعصيان المدني عمل شيء، اجتمع مع ثلة من المخلصين، منهم عثمان الأمين وأحمد قصاب باشي، وفريد نصور، المسيحي، قرروا إنشاء صندوق لدعم الثورة، يأخذ من أموال الأغنياء والتجار، أرسلت الرسائل إلى المحافظات السورية، وبدأ الإضراب العام فيها جميعاً، وكان مركزه مدينة حماة.

أبو علي يسرد بانفعال، وهو جالس على الكرسي المقابل لي، كان يركز نظره على الأرض كأنما يقرأ من كتاب مفتوح، ترتجف يداه ويتهدج صوته، تلتمع لآلئ العرق عل جبينه ويتابع الكلام:

كان رئيس الجمهورية حينها أمين الحافظ، أرسل إلى حماة ستة ألوية من الجيش، في كل لواء ألف وخمسمئة جندي، طوقوا المدينة واقتحموها

بالدبابات، دخلوا جامع السلطان، داسوا بأحذيتهم نسخ القرآن الكريم، هدموا أجزاء منه، واعتقلوا ألفين من الرجال، أقيمت لهم محكمة عسكرية في حمص برئاسة صلاح الضللي، وعضوية مصطفى طلاس ونادر قوشقجي، حكمت المحكمة بالإعدام على نصف العدد، وبالسجن المؤبد على خمسمئة منهم، وكان أقل حكم هو السجن لخمس سنوات، حينها قال أحد المحامين الدمشقيين: لأول مرة في التاريخ يحكم بالإعدام على ألف رجل من مدينة صغيرة مثل حماة.

قبل ذلك، وفي بداية حكم أمين الحافظ لسورية، كان قد عمل جولة على المحافظات، وحين وصل حماة، طلب من المحافظ دعوة جميع الوجهاء ورجال الدين ليجتمع معهم، في الاجتماع سأل أمين الحافظ: أهؤلاء هم كل وجهاء ومشايخ حماه؟ ألم يتغيب أحد منهم؟ أجابه المحافظ بأن الغائب الوحيد هو الشيخ محمد الحامد، هذا الرجل لا يمكن جلبه إلى مثل هذه الاجتماعات، غضب رئيس الجمهورية وراح يسب ويشتم بأقذع الألفاظ التي يعرفها ويتقنها البعثيون، أرسل مجموعة من الشرطة قائلا لهم: اشحطوه وأحضروه إلى هنا مقيداً.

ذهبت دورية الشرطة يدفعها الخوف من السلطة، ويثنيها الحياء من هيبة الشيخ محمد الحامد، دخلوا عليه وأخبروه بما كان من أمرهم، فكتب رسالة إلى الرئيس، مما جاء فيها: نعم الأمراء على أبواب العلماء، وبئس العلماء على أعتاب الأمراء، انا أربأ بك عن هذا، قرأ أمين الحافظ الرسالة، فكر قليلا ثم أشار للمجتمعين: لنذهب كلنا إلى منزل الشيخ محمد الحامد، كانت شخصية الرئيس أمين الحافظ مزيج عجيب من جبروت العسكري البعثي وسذاجة الغائب عن حقيقة الأحداث، وطيبة واندفاع قبضايات الشوارع، لذلك، انحنى وقبل يد الشيخ أمام كل المجتمعين، وسأله عن طلباته، فلم يطلب شيئاً، أعطاه رقم هاتفه في البيت ومكتب الرئاسة، وقال له اتصل بي متى شئت، ولأي سبب كان، لكن الشيخ لم يتصل معه أبداً.

بعدما سيطر الجيش على المدينة كتم أنفاسها ومنع التجول فيها، هاج الشارع الحموي وماج، فكر من بقي من الوجهاء بتشكيل وفد يذهب الى القصر الرئاسي، شاوروا الشيخ محمد الحامد فلم ينضم لهم، تركهم يتشاورون وسافر وحيدا إلى دمشق، اتجه مباشرة إلى القصر الجمهوري.

كان في إحدى قاعات القصر شيوخ ووجهاء البدو، وقد اعتقلوا بتهمة رهيبة، اذ كانوا يضعون الخبز في توابيت ويدخلونه إلى مدينة حماه في موكب

جنازات، بعدما تم إغلاق الأفران التي تطعم الخبز للمدينة، شاهد الشيخ محمد الحامد أولئك الشيوخ يجلسون مرعوبين، بينما جلس رئيس الجمهورية إلى مكتبه، وضعا فوق الطاولة رشاشاً، يديره في وجوههم يمينا وشمالا، وسط سيل هادر من الشتائم البذيئة، حين علم الرئيس بقدوم الشيخ محمد الحامد قام لاستقباله، وأخذه إلى مكتبه، قدم له القهوة بعدما قبل يده، رفض الشيخ الجلوس وشرب القهوة قبل تلبية طلبه، طلب العفو عن كل المعتقلين، تلكأ الرئيس، متحججا بأن الحكاية معقدة تحتاج الكثير من الإجراءات، وتحتاج اجتماع مجلس قيادة الثورة للموافقة على القرار، لكن الشيخ ظل واقفاً، قال له أنت رئيس الجهورية، أمامك الهاتف، اتصل بالإذاعة لتعلن العفو الرئاسي، أريد سماعه بالراديو قبل جلوسي.

الرئيس أخذته هبة من النخوة فاتصل بوزير العدل وطلب منه إذاعة مرسوم العفو بالراديو، حينها جلس الشيخ، وشرب القهوة، وأفرج عن كل المعتقلين، فقال أحد شيوخ العشائر: الشيخ شيخ، ليس كل الشيوخ سواء، أفرج عن الشيخ مروان حديد في ذلك العفو فنقل مركز نشاطه إلى دمشق.

كان أبو علي يرشّ كلامه دراكاً، لم يترك لي فرصة لطرح سؤال، أو الاستفسار عن مشهد من المشاهد، كان العرق يتصبب من جبينه، وتتقاطر نقطه على الأرض، وقد انحنى أبو علي بجذعه للأمام، مسنداً كوعيه على ركبتيه، منقلا نظره بين الأرض والجدار، ينظر لحظات إلى السماء عبر النافذة ويتابع الكلام، رفعت يدي أستوقفه، وأطلب الحديث، رد غاضباً أنا ما انتهيت من القصة بعد، مازلنا في البداية، أجبته معتذرة: كنت أود سماع شيء عن ثورة الثمانينات، كيف بدأت؟ وكيف قمعت؟ كيف دمرت مدينة حماة من أجل إسكاتها، وكيف حُمّلت بكاملها للإخوان المسلمين، مع أنها كانت ثورة شعبية اشتركت فيها كل الأحزاب والطوائف، والدليل أن الكثير من الشبان العلويين والمسيحيين ممن أعرفهم، اعتقلوا وضاع شبابهم في سجن تدمر، وفي دائرة السجل المدني بالحفة، بيدي استخرجت لهم بطاقات الهوية بعد الإفراج عنهم.

شاشة هاتفي الموصول بجهاز الشحن راحت تومض معلنة عن رسالة، فتحتها، إنه أسامة، يهنئني بالعيد ويتمنى أن يكون عيدنا القادم في بلادنا وبيوتنا، رددت على رسالته باتصال، أخبرته بأبي في الريحانية، أبحث عنه، عنهم، قال انتظري في مكانك، سيأتي أخي حسام لاصطحابك إلى بيتنا، قال أبو علي انتظري، هنالك فقرة يجب أن تعرفيها، حافظ الأسد هدم مئة

وخمسين مسجداً في حماه، ولم يهدم جامع الحسن، هل تعرفين لماذا؟ لأن محمد ابن نصير الذي أسس الديانة النصيرية كان يلقي دروسه فيه، وفي باحة ذلك المسجد قبرين، لولدي ابن محمد نصير، جلب علي مملوك الرافعات والمعدات الثقيلة الخاصة بالجيش ونقل القبرين إلى إحدى قرى جبلة.

جاء حسام، فانقطع بوصوله حديث الذكريات الذي كان يسرده أبو علي، بل حديث التاريخ الحقيقي الذي عاينه بنفسه وعاش جميع أهواله، استأذنتهم بالمغادرة، مع وعد بالعودة لإكمال ما انقطع من الحديث، أريد أن أعرف أشياء كثيرة مما كان يدور في العقود الماضية من الأحداث، لأعرف كيف أكتب، كيف أتحرك؟ كيف أفي بوعدي لجدي الذي حملني الأمانة كطوق في عنقي، كيف أرد على أسئلة الأجيال الجديدة من الشباب، التي لم تشهد تلك الأحداث ولا روى لها أهلها شيئاً عن تفاصيل تلك المرحلة، نعم إن الشباب ثاروا، ضحوا بأرواحهم ودمائهم، ضحوا ببعض الأعضاء من أجسادهم ليعيشوا معاقين ما بقي لهم من العمر، قدموا تضحياتهم في سبيل عيش كريم، لرفع نير الظلم والعبودية الذي أذل رقاب الناس، لإزالة حال الرعب المستبد بالقلوب جراء حكم الحديد والنار، يريدون رغيفا يأكلونه مع عائلاتهم بأمان، يريدون فرصة للعمل الشريف، يريدون إغلاق بوابات الجحيم التي أطلق عليها زوراً وبهتاناً (فروع الأمن) لكنهم لا يدركون مساحة الفضاء

المحيط بهم، لا يعرفون التاريخ، وليس لديهم صورة واضحة عن الحاضر ليتمكنوا من رسم المستقبل.

غرقت في التأمل ولم أنتبه لحسام، كان وجهه جهما صارماً، قادني عبر أزقة ضيقة يتراكم الحطب أمام أبوابها، كان صامتاً طوال الوقت، سألته عن أبيه، عن أمه وإخوته، كانت أجوبته مختصرة مقتضبة، لذلك لذت بالصمت بقية الطريق..

في البيت كان الاستقبال حاراً، بكت الحاجة زينب كثيراً، نعم هذا هو عيدنا، موت وثكل وغربة وتشرد، كان أبناء محسن وأبناء أخيه حسام يملؤون البيت صخباً، ولا يردعهم أحد عن شيء، يتقافزون في ذلك البيت الضيق يتراكضون، يقلبون الكراسي والأواني، يصرخون، يجلس أسامة في زاوية الغرفة، يداري ساقه وأسياخ الحديد التي تخترقها لئلا يدوسها أحدهم أثناء اللعب، والحاجة زينب صابرة صامتة، تقول دعوهم ليعيشوا طفولتهم، أما الأحزان فلن تهرب منهم، ستنتظرهم وسيأخذون من الحزن حصتهم.

أحد الأطفال فتح التلفزيون، راح يقلب في المحطات وتوقف على الفضائية السورية الرسمية، كان المذيع يقرأ الأخبار، يقول قضينا على الإرهابيين، والأزمة اقتربت من نهايتها، أنا أعلم، وكلنا يعلم أن الجزء الباقي

من سورية تحت سيطرة النظام أقل من الثلث، صرخت أم حسن: أغلقوا التلفزيون، لا نريد كذبا، وشط بي الخيال إلى الطفولة البعيدة، حيث كان عمي علي شحيدة رحمة الله عليه يجمعنا في فناء داره ليقص علينا الحكايات، حكاية كان يكررها، لا يمل من تكرارها ولا نمل من الإصغاء إليه، تقول الحكاية:

(عندي دجاجة حبشية، بيضتها تزن أوقية، علم بها الجيران فأخبروا السلطان، صاح بي: ولاك.. اشويها واقليها وبدهنها غطيها.. رحت شويتها وقليتها وبدهنها غطيتها، جاء القط المبلق أخذها وتسلق، هو يهدي وأنا أهدي إلى جورة حسين الكردي، لاحني ولحته، من عزمي سقطت تحته، لولا حضور حسين وابن أخته، أنقذاني من تحته، لكنت فطسته، وانظروا كيف احمرت رقبتي .. من شدة الصفعات التي صفعتها له) نقاطعه بكثير من الأسئلة:

- يا عمي، كيف ينتصر عليك وهو قط وأنت رجل، وكيف تفطسه وأنت تحته؟ ومن الذي تحمرّ رقبته، الضارب أم المضروب؟

يضحك عمي ويقول: حين تكبرون ستعرفون كيف تقلب الحقائق، كبرنا يا عمي، وها نحن نرى الحقائق مقلوبة في كل وسائل الإعلام، المحلية والدولية،

ونسمع كيف يزورون الحقائق فيقولون عن ثورة شعب قام ليدفع عن نفسه الظلم والمذلة، فيصفونها بالحرب الأهلية تارة، وتارة بالحرب على الإرهاب، يصورون هزائمهم أمام الثوار انتصاراً، وكذلك حصل في حرب 1973 والتي سميت بالتحريرية، وهي إلى الهزيمة أقرب، بل هي الخيانة والهزيمة مجسدة.

تمنيت لو أتحدث مطولا مع كل واحد من أفراد هذا البيت، لكن زوجة محسن كانت مشغولة بجمع ملابس أطفالها استعدادا للعودة إلى جبل الأكراد، حيث سيلتحق زوجها بكتيبته بعد انقضاء العيد، كان الأطفال سعداء بالعودة، يغنون ويهتفون : سنعود إلى سورية، والجدة تهز رأسها بأسى، أية سورية ستعودون إليها؟ تلك التي تمطرها صواريخ حكومتها وبراميلها المتفجرة في كل حين، أرجو الله أن يحميكم من شرورهم، وأن ينصرنا قريباً لنعود لبيوتنا، ونعيش مثل حياة البشر.

انقضى ذلك النهار، صداع يدك رأسي، عظام جمجمتي أشعر بها تتفتت من ضغط بداخلها، لم تؤثر بها المسكنات التي لا تفارق حقيبتي، ولا غسل رأسي بالماء البارد، ولا هدأ صخب الأطفال إلى ما بعد انتصاف الليل، خجلت من أهل البيت، وندمت على زيارتي لهم، أما تكفيهم آلامهم ليمضوا جزءاً من الليل في الاهتمام بي؟

هدأت ضجة البيت بعد نوم الأطفال فهدأ قليلا صداعي، نمت على فراش إسفنجي رقيق بجانب فراش الحاجة زينب، نام كل من في البيت وبقيت الحاجة زينب تحكي لي عن مناقب ابنها الشهيد (سعيد) وأنا أنصت إليها، وأستحضر ما حدثني به عزام ابن أخي، إذ كان مع سعيد في الخندق ذاته منذ أيام طويلة، أصدقاء هنا مثلما كانوا أصدقاء في القرية، في تلك اللحظة كانوا منشغلين ببناء جدار يفصلهم عن رصاص الجبهة المقابلة، جبهة الجيش النظامي التابع للحكومة، كانوا يتبادلون الطرائف والأحلام، يحلمون ببناء بيوت يسكنون فيها، تكون ملكاً لهم، يحلمون بانتهاء الثورة بالنصر ليتزوجوا ويفرحوا، بل تسف بهم أحلامهم فيتخيلون امتلاك سيارات، في ذلك اليوم القريب، كان ثالثهم عبد الرحمن السعيد، صاح بهم صديق من خندق آخر، يا شباب انبطحوا، صوت صفير صاروخ قادم، انفجر الصاروخ قريبا منهم، ظل عزام منبطحاً حتى هدأت الأصوات، رفع عزام رأسه وقد تعطلت أذناه عن وظيفتهما، راح ينادي رفيقيه، يا سعيد ..يا عبد الرحمن.. التفت إلى مكان سعيد فرأى كومة من الأحشاء، تشظى جسد سعيد.

قام عزام ليبحث عن عبد الرحمن، مشى خطوات ثم ارتمى على الأرض، ما كان يدرك حجم إصابته، استشهد كل من سعيد وعبد الرحمن، وتلقى عزام رشة من شظايا الصاروخ توزعت على جسده كاملا، من ظهره حتى كعبيه، نقل بعدها إلى مستشفى انطاكية.

صمتت الحاجة زينب، هل انتهت حكايتها؟ أم وجدتني لا أتفاعل معها فظنتني نائمة، لا أعلم هل نامت قبلي أم نمت قبلها، لكن أذان الفجر القادم من المسجد القريب، أكد لي أني والحاجة زينب لم ننم، بل استسلمنا للصمت مدة تحسب بالدقائق، قمنا للصلاة، واستيقظ محسن وحسام، والزوجات والأطفال، وعادت ضجة البيت اشد مما كانت بالأمس، كانت حنين ذات السنوات التسع تفوق الجميع حركة وصخبا، تخطف لقمة هذا و تنكز ذاك، جميلة جداً وتعرف أنها جميلة، وتعرف أنها الأثيرة لدى أبويها، لذلك لا تخشى عقاباً، فتراها تضحك، وتضحك، وتحلق في فضاء البيت كفراشة مشاغبة، بثوبها الملون بالأزهار، وعقدة شعرها الشبيهة بالتاج.

ما كنت أتوقع أنني سوف أزور أم حسن بعد عامين من زيارتي هذه، لأجد محسن قد ترك الجبهة وجاء للسكن في تركيا، بعدما دفن في تلك القرية السورية ولده الصغير، وجاء حاملا ابنته الجميلة ليبحث لها عن علاج، بعدما سقط صاروخ قرب بيتهم هناك، فقتل أخاها، وابنة الجيران التي كانت تلعب معها، وأصابها في عمودها الفقري لتعاني شلل نصفها السفلي بقية أيام حياتها، وما كنت أعلم أن وجه حنين سيحتل الكثير من أغلفة المجلات والصحف، التي أقامتها منظمات تدعي مساندتها للشعب السوري، يأتي مندوبوها إلى المشافي، يلتقطون الصور ويذهبون، لا يقدمون أية مساعدة،

انطفأت الفرحة على وجه أم حنين، تركت كل شيء وانشغلت بابنتها، تركض بها من مستشفى إلى آخر، راجية أن ترى ابنتها تمشي على رجليها مرة أخرى، حنين توردت وجنتاها وهي تدنو سريعا من مرحلة البلوغ، لكن نصف جسدها السفلي يعاني حالة من الموت، فاقداً الإحساس، تخرج منها فضلات جسدها ولا تشعر، عادت أمها لتلبسها الحفاظات كالأطفال الصغار، وصار تبديل الحفاظات مأساة تشبعها بكاء وقهراً، أما الأب، فراح يبحث عن عمل، اشتغل بأعمال البناء والدهان، اشتغل في المزارع والبساتين، كل هذا ليؤمن نفقة أسرته وأجرة البيت.

أما حسن، ابنه الأوسط... بعد موت أخيه صار هو الصغير، صار يستيقظ في الليالي مصابا بحالة من الهلع، يخاف من أي صوت مرتفع، ولم يدخل المدرسة بعد.

اكتمل التحضير للسفر، وضعت الأم بعض الطعام في حقيبة، لأن الوقت لم يتسع لهم لتناول وجبة فطور، ولأن الطريق وعر طويل، حين يقطعه الصغار بمعدة فارغة سيكون أدعى لسلامتهم.

ودّعت الحاجة زينب المسافرين، وراحت تدعو بحرارة قلب الأم أن يحفظهم جميعاً من كل سوء، وأن يمن عليهم بالنصر الذي يجاهدون لأجله،

وحين أغلق الباب ذهبت إلى الشرفة، ظلت تتابع بنظرها السيارة التي يركبونها حتى غابت في المنعطف، تركت الشرفة وجلست في زاوية البيت صامتة، ذاهلة العينين، كأنها فقدت الإحساس بالمكان، وبالوقت، صارت تمثالا جامداً من لحم ودم، قالت ابنتها دعاء، الشابة المنقطعة عن دراستها، وهي تحبس دموعها في محاولة لكسر جدار الصمت: الآن نستطيع أن نتنفس بارتياح، بعدما هدأ جو البيت من صخب الأطفال، لم تلتفت الأم، وكأنها لم تسمع ما قالته ابنتها، نظرت إليّ دعاء كأنما تطلب العون، أشرت بنظري إلى المطبخ، دخلت دعاء المطبخ وتبعتها، طلبت منها إعداد قهوة الصباح، ثم وجبة الفطور، ريثما أحاول فك جليد الحزن الذي يغلف الأم المفجوعة.

- أرجو الله أن يردهم لك سالمين غانمين ، وتستقبلينهم حاملين بشائر النصر .... لم تجب على كلامي، مازالت غارقة في ذهولها، فكرت مطولاً فيما أخرجها به من حالتها، وأخيراً تذكرت شيئاً.
- أمي كانت تدعو الله ألا يجعلها من النادمين، وأنا الآن نادمة، كان بودي لو أرسل لأخي شيئاً مع أولادك، حين ودعنا المسافرين أنساني المشهد ماكنت سأفعله، كنت أريد إرسال أشياء لأخي هناك في الجبل، لأن أولادك سيلتقون به وبأسرته، ما رأيك؟ هل أكلم محسن بالهاتف أطلب منه التوقف وانتظاري لألحق بهم وأعطيهم الأمانة؟

- لا.. أرجوك.. لا تفعلي، قالت العجوز بخوف، أنا أتشاءم من عودة المسافر قبل بلوغه هدفه.
- حسنا، سأبحث بين الشباب العائدين إلى الجبل عمن يوصل الأمانة لأخي، لا تحزني يا أختي، لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

مدت دعاء رأسها من باب المطبخ، لتستطلع الأمر، مسحت دموعها لتسألني وهي عالمة بالإجابة، هل أحب القهوة بسكر؟ أم بلا سكر؟

شربنا القهوة، على وقع حديث الحاجة زينب، قالت الكثير عن أملها بانتصار الثورة، والعودة إلى وطن لا يشبه ما تركناه وراءنا أثناء هجرتنا، وطن تسوده المحبة والألفة، وطن يعطي الكرامة لأبنائه، ويفترض تكافؤ الفرص في العمل والسكن والخيرات، وطن يعيش فيه أبناؤه كالبشر الأحرار، لا كالعبيد لآل الأسد، عجبت منها، هذه العجوز التي أمضت حياتها بين بيتها وحقلها، كم تفهم من معاني الوطن والمواطنة، كيف لشعب فيه مثل زينب أن يعود للذل؟ لن يعود، لن يعود للذل مهما بلغت التضحيات.

ودعتها وابنتها، لا بد من عودتي إلى مريم بعدما انقضى العيد، بل لابد لي من العودة إلى ابن أخي الجريح، الذي تركته في غرفة صغيرة يستأجرها بعض الشباب السوريين، ودعت الحاجة زينب وابنتها، ونزلت إلى الشارع، كان ابنها أسامة يقف هناك مستنداً إلى عكازيه، يغالب دموعه.

- أنا ذاهبة يا أسامة، لابد من وجودي إلى جانب ابن أخي الجريح، أستودعك الله.
- مع السلامة، انتبهي لنفسك، ولجريحك.
- لماذا تبكي؟ أخوك وأسرته سبقونا، وسنلحق بهم إلى بلادنا المحررة من الظلم، قريبا إن شاء الله.
- يبكيني عجزي، وهذه العكاكيز، لولاها لرافقتهم إلى هناك، أشارك بالثورة بدل قعودي هنا كالنساء.
- ستشفى إن شاء الله، وستعود لتعمل ما تحب من الأعمال، توكل على الله يا ابن خالي.

تركته، ومشيت إلى محطة الحافلات المسافرة إلى أنطاكية، أغالب دموعي، هل كنت حزينة من أجل العجوز؟ هل كنت أشارك أسامة قهره وعجزه؟ في الحقيقة كانت دموع الفرح، بعد عقود من الذل والخيبات، بعد روايات وقصص كتبتها أستنكر فيها خنوع شعبنا لقهر الدولة وأجهزتها المخابراتية، أجد أن ذلك الرضوخ كان محض غبار، ها هوذا مطر الثورة يهطل بغزارة على كل شبر من سورية، فيغسل ذاك الغبار، لتلمع الوجوه بوميض القوة والتمرد، صافية مستبشرة بنصر لابد من انبلاج فجره مهما اشتدت حلكة الظلام.

مشيت في شارع المناشر، الأخشاب مكومة على الأرصفة في الجانبين، لها رائحة تعيدني لقريتي، حيث يعمل معظم شبابنا بقطع الأخشاب من الغابات المجاورة، لانعدام فرصتهم في الحصول على وظيفة في مؤسسات الدولة، ولقصر أيدي من توظف منهم عن الرشوة والسرقة والمال الحرام.

وصلت المحطة، ركبت الحافلة المسافرة، جلست فيها في مقعد مفرد، وقد تغيرت الصورة كلياً في مخيلتي، بعدما سمعت أسامة، وسمعت أمه، بعدما رأيت حنين، وإخوتها وفرحتهم بالعودة إلى سورية، صعد رجل إلى الحافلة، ألقى سلاماً، ولأنني وحدي في الحافلة، اعتبرت رد السلام فرض عين علي، رددت السلام بصوت خافت، بادرني الرجل بالسؤال: هل انتهت زيارتك لأقربائك؟ يبدو أنه يعرفني، رفعت نظري، تأملته، وجه بملامح ضخمة، صوت أجش، يرتدي (كلابية) كالتي يرتديها سكان المحافظات الشرقية من سورية، أزرار صدرها مفتوحة، ينفر منها شعر يشبه زرعاً أحرقه تتابع السنين ولم يترك منه سوى الرماد، رماد يمتد إلى شاربيه الذين صبغ شيبهما دخان التبغ بصفرة كريهة، ويمتد إلى الأعلى، بشكل حزمتين من حصاد محروق، تظللان عينيه الذئبيتين المستطلعين، هذا الوجه رأيته من قبل، ولكن من هو؟ أين رأيته؟ يا لهذه الذاكرة كم تخذلني في المواقف المحرجة، عملي لعقدين من السنين في دوائر السجل المدني أربك ذاكرتي، أسماء أكتبها عدة مرات في يوم واحد،

أكررها على عدد من الدفاتر وصاحبها واقف أمامي ريثما أنتهي من معاملته، ويغيب بعدها لسنوات، فأنساه وأنى اسمه، أطرقت أفكر في الرجل الجالس أمامي، من هو؟ أين التقينا من قبل؟

بدأ الركاب بالصعود إلى الحافلة، لم يكمل الرجل حديثه، ولم أجب على سؤاله، جلس في المقعد الذي يلي السائق مباشرة، ويتجه ركابه بوجوههم للخلف، ليقابلوا كل الركاب، خرجت بنظري واهتمامي من النافذة أستطلع هذه المدينة الصغيرة، حين وصلنا إلى نهايتها عضضت أصابعي أسفاً، كان يجب عليّ العودة إلى دار إيواء من سبقتهم أطرافهم إلى الجنة، لكني نسيت، لا بأس، سأخصص لهم زيارة ثانية.

الحافلة تمشي بنا بحذاء الجبل، قال أحد الركاب: سفح هذا الجبل لتركيا، بينما قمته وسفحه الآخر لسورية، انظروا ما فعلته بنا أسلاك سايكس وبيكو، أجابه آخر بمطلع أغنية مشهورة (يا جبل البعيد خلفك حبايبنا) تجاوزت الحافة المدينة ودخلت طريقاً يمتد طويلاً بين الأراضي الزراعية، ما أشبه هذه الأرض وهذه المزارع بأرض حماة وحمص، كأني في بلادي، لكني لست في بلادي التي اشتعلت بنيران الحرب.

وصلت الحافلة بنا إلى المحطة في قلب انطاكية، هاتفي يرن، مريم على الخط تعتب عليّ إذ غادرت بيتها في نهار العيد، كانت تظن أن العيد سيفرحني، مريم تسألني عن ابن أخي الجريح لتطمئن على صحته، ابن أخي تركته في غرفة صغيرة كانت مخصصة للحطب، فرغتها صاحبتها لتؤجرها بعدما تزايد عدد السوريين الراغبين باستئجار البيوت، يسكنها الآن بضعة شبان من منطقتنا، منهم من جاء ليعالج جراحه ومنهم من جاء يبحث عن عمل ليعيل أسرته النازحة في قرى سورية، ابن أخي أخرجته من المستشفى خوفاً عليه من الأذى.

انتحيت جانباً لأكلم مريم بالهاتف، وحين انتهيت، تلفت حولي أريد ماءً للشرب، فرأيت الرجل ذا الكلابية واقفاً أمامي ينظر إليّ كأنما ينتظر انتهائي من المكالمة التلفونية، دنا خطوة وقال: أريد التحدث إليك، قلت أريد ماء أشربه، أشار بيده إلى صنبور يرتفع عن الأرض مقدار شبر واحد، وقال : اشربي، صدمتني إشارته، مشيت خطوات باتجاه ثلاجة في واجهة دكان، أخذت منها زجاجة ماء، دفعت ثمنها وبدأت الشرب، شربت كفايتي ثم وضعتها على الأرض أمام الدكان، أسرع إليها، التقطها الرجل وشرب الباقي، لحق بي مسرعاً ووقف أمامي:

- اسمعي، أنت قلت أنك لست بذات زوج، ولا أولاد، أنا سأتزوجك، وأسكنك في مخيم اللاجئين، هنالك ستجدين مجانا المأوى والطعام، لن تحتاجي للنقود، هذه الأموال التي تنفقينها في أسفارك أولادي أحق بها منك.

كانت تلك أولى الصفعات التي تلقيتها في هجرتي، وقفت أنظر إليه وقد جمّد عقلي وتفكيري هذا العرض المفاجئ بشدة وقاحته، ما وجدت كلاما أرد به عليه، خفت منه، ركبت أقرب سيارة تكسي ورحت أفكر بهذا الصنف من الرجال الذين أفرزتهم الفوضى التي نشأت على هامش الثورة، من قال لك أيها المأفون أني أبحث عن زوج؟ وهل ألتقط الزوج من الدروب هكذا؟ وهل ألتقطه بمثل شروطك؟

* * *

عزام ابن أخي ما زال يتقلب على فراش الحمى، جسده يرتعش، وجهه بلون الفلفل الحار، يفتح عينيه، ينطق بالشهادتين ثم يغمضهما بشدة ويعود لآلامه، يفرك وجهه بالوسادة عاضاً على شفتيه من الألم حتى أدماهما، التهبت جراحه ولا يجد رفيقه في الغرفة ما يقدمه له، نحن في عطلة العيد، يقف عبد الرزاق، الشاب المستأجر للغرفة التي يرقد فيها عزام، يقف عاجزا مشبكاً ذراعيه على صدره، والدموع تطفر من عينيه، هالني المشهد، وأنا لم أصل إلى منزل مريم بعد، خاطبتها بالهاتف، أخبرتها عن حالة جريحنا، وحيرتي في تدبير أمره، ردت مريم بدعوات صالحات، وأمنيات بشفاء عاجل، أخبرتني أن طبيبة سورية تسكن في البناء المقابل لبيتها، وطلبت مني الحضور، لنذهب معاً إلى الدكتورة نعيمة.

جلبت الدكتورة نعيمة أدواتها في حقيبتها الإسعافية، ساعدني عبد الرزاق، كشفنا عن ظهر الجريح الذي بدا كالغربال، الشظايا الغارقة في ظهره متفاوتة الحجم والعمق، كلها محاطة بدوائر حمراء قانية، وما خفي في فخذيه وربلة ساقيه وكعبيه أكثر منها، قالت الطبيبة بصوت قوي واثق، ليس هنالك من خطر، الجروح ملتهبة وعلاجها بسيط، سأعطيه الآن جرعة مسكنة، وفي الغد تجلبون بقية الدواء من الصيدلية، شحذت إبرتها، ملأت قناتها بالسوائل اللازمة، غضضت نظري كي لا أراها، لا أتحمل رؤية مثل هذا المنظر، أنهت

مهمتها واستعدت للمغادرة، رافقتها إلى الشارع لأطمئن منها على حقيقة الوضع، فالأطباء لا يصرحون بالحقائق على مسمع المرضى.

مضت أيام، تغلب الجسد الجريح بشبابه ومناعته على الآلام، وصرح ابن أخي: أريد العودة إلى جبهة القتال، لم أعترض، فحماسته وشوقه لمواصلة الثورة لا يمكنني مقاومتها، جلبت له بعض الملابس الضرورية، ثم ودعته ورجعت إلى منزل مريم، وأنا أرجو الله ألا يخيب مسعى هؤلاء الشباب، وأن ينصر هذه الثورة المباركة، لنعيش عيشة تليق بإنسانيتنا، بكرامتنا، عبد الرزاق صاحب الغرفة سلم مفاتيحها لأصحابها ورافق ابن أخي، لعل عدوى الحماسة قد أصابته، أو لعله شعر بالخزي لانشغاله بالعمل المأجور في مدن تركيا، ليؤمن لأهله نفقتهم، قال أهلي ليسوا أفضل من كل العائلات التي تعيش هناك، سأتركهم يتدبرون أمر معيشتهم أسوة بجيرانهم، لن تعطلني نفقتهم عن الالتحاق بصفوف الشرفاء.

البيت، بل البيوت، كانت في حالة انفعال وغليان جميل، سببه ترقب وصول طوبى ابنة أمينة من استنبول حيث تعمل، طوبى جميلة الجميلات، وهي فتاة الأسرة المدللة، أمينة تجهز المأكولات التي تحبها ابنتها، تساعدها مريم وعائشة، بتول تتحرك بين غرف المنزل كطائر حبيس، حين وصلت، انهملت عليّ الأسئلة تستفسر عن حالة ابن أخي، أخبرتهن أنه سافر، عاد إلى الجهاد، وجلست على هامش اجتماعهن أرقب حالة الفرح التي تضيء جو المنزل، الجدة المقعدة ما تفتأ تسأل من فراشها: أما وصلت طوبى؟ بين

تأثري بوداع ابن أخي ورفيقه، والفرح الغامر الذي أراه أمامي وحولي احتفاء بعودة طوبى، سألت الله أن يديم الأمان على أهل هذا البيت وعلى هذا البلد.

صوتٌ قويٌّ اجتاح وعيي وأخذني من حديثي معهن، إنه صوت أبي، يناديني باسمي من مكان قريب، أصغيت أبحث بأذني عن مصدر الصوت، سمعت نداءه مرة أخرى، أسرعت إلى الشرفة لأفحص امتداد الشارع بحثاً عن أبي، لم أجده، الشارع مقفر في هذه الساعات من اشتداد حر الهاجرة، لكني سمعته، أقسم أني سمعته، أعاد النداء مرتين، من مكان قريب، هل أتوه عن صوت أبي؟ رجعت أجرّ الخطى ذاهلة، أحتار في تفسير ما سمعت، سألتني أمينة: ما الأمر؟ أي شيء في الشرفة استدعى تغير ملامك وذهابك بهذه السرعة؟ قلت لها إنه صوت أبي، يناديني، قالت: ما الذي يجيء بأبيك إلى تركيا وهو عجوز شارف على المئة سنة كما أخبرتنا، ولو فرضنا أنه جاء، من أين سيعلم أنك في هذه المدينة، بل في هذا البيت؟ إنها أوهام.

لا، ليس وهماً، إنه أبي يناديني، حين بلغته بقراري، وتركت السيارة تعود به إلى قريته، لأرافق العائلات الهاربة بأرواحها وأعراضها إلى تركيا، انتحب كطفل صغير، ظل صوت بكائه يطرق مسمعي حتى غابت به السيارة خلف المنعطف، هناك، وبعد اتصالات هاتفية، علمت أن أبي ذهب وحده إلى بيته، بينما بقيت أختي وزوجة أخي عند أقاربنا في مدينة اللاذقية، أبي شيخ

كبير، لا يعرف كيف يشعل موقد الغاز، ولا خبرة لديه بإعداد الطعام، ولا يعرف كيف يستخدم الهاتف الجوال، أما هاتف المنزل فقد توقفت شبكته منذ بداية الثورة، ترى كيف يعيش؟ ماذا يأكل؟ كيف يغسل ملابسه؟ كيف يمضي أيامه ولياليه وقد خلت القرية إلا من بعض العجائز، وشباب اتخذوا من الكهوف في الغابات مأوى لهم، أنا في انطاكية، شبكة الهاتف الجوال السورية تغطي هذه المنطقة، قررت الاتصال مع ابن عمي عبيدة.

أجابني عبيدة بأن القرية ملغومة بحواجز الجيش والمخابرات، لذلك لا يمكنه دخولها، واستدرك، قد يكون عمي في حقله، سأبحث عنه بنظري من الجبل المقابل، أكدت له أني أريد التحدث مع أبي لأمر ضروري، وأن عليه أن يسمح له بالتحدث معي عبر هاتفه.

مرَّت ساعة من الصبر كأنها الدهر طولاً، انفصلت عن مجموعة النساء بوعيي، وظللت في مجلسهن لا أسمع ما يتحدثن به، شغلتني الهواجس، ترى ما حال أبي؟ كيف أتمكن من مساعدته؟ بيني وبينه حدود دولية، بعد الحدود فوهات بنادق لا تميز بين مخطئ ومصيب، بعد الحدود بوابات سجون فاغرة أفواهها تبتلع الصغار والكبار، الرجال والنساء والأطفال، من يدخلها يصبح

الموت أقصى أمنياته لشدة ما يلاقي من التعذيب والتنكيل وازدراء الإنسانية، لك الله يا أبي.

انفضَّ مجلس النساء من حولي، وبقيت وحدي، تكتكات ساعة الجدار تضغط على أعصابي، تحرقها، هاتفي بيدي أطيل التحديق فيه انتظاراً، متى تضيئين أيتها الشاشة وتخبريني بما يطمئن قلبي؟ مريم تربت على كتفي، كأم حنون، توصيني بالصبر، وبالرضا بقضاء الله وقدره، صرت أشعر معها شعور طفلة أمام أمها، وأنا أزيدها في العمر سنوات، تزيدني في التقوى والشعور الإنساني دهوراً لا يمكنني تحصيلها، جلست مريم بجانبي تواسيني وتحاول تخفيف ألمي، و.. أضاءت شاشة هاتفي برسالة ابن عمي عبيدة، سارعت بالاتصال:

- ابن عمي.. ماذا لديك؟
- أنا هنا بجانب عمي، خذي وتحدثي إليه..
- أبي كيف حالك يا أبي؟ سمعتك تناديني باسمي مع أذان العصر، هل تحتاجني؟
- وهل سمعت ندائي؟ إني والله كنت أناديك بأعلى صوتي، وهل لي غيرك ألجأ إليه في وقت شدتي؟

- ماذا تشكو يا أبي؟
- إني جائع يا ابنتي..

وانقطع الحديث بيننا، بكيت بأعلى صوتي حين سمعت شكوى أبي ممتزجة بنحيبه، ما أقسى أن يبكي رجل قارب المئة من سنوات عمره، والأقسى أن يكون هذا البكاء بسبب الجوع، أغلقت الهاتف واستسلمت لنوبة البكاء، ثوان قليلة، هدأت نفسي وعاودت الاتصال، رد عبيدة:

- ابن عمي، أبي أمانة في أعناقكم..
- كلنا جياع مثله يا ابنة عمي، قريتنا محاصرة، ولا يسمح لأحد بإدخال أية مواد غذائية إليها، مخزوننا نفد ولا نجد ما نأكله سوى ما تعطيه الحقول من الفواكه، الصيف في بدايته والفواكه لم تنضج بعد. المشمش وحده لا يكفي.
- يا ابن عمي، في بيت أبي خبأنا كميات من البرغل والعدس والطحين والملوخية المجففة، خذوها، كلوا منها وأطعموا أبي.

انتهت المكالمة، وغرقت في صمتي، يقول ابن عمي عبيدة (للصمت ضجيج يطحن عظام الصدر) أشعر بأضلاعي تطبق على رئتي وقلبي، كأني أسمعها تتحطم بصوت يشبه تحطم طبقات الجليد في صباحات الشتاء تحت

أقدام أول عابر، أشعر بأنفاسي تضيق حتى أكاد أختنق، وتأتي كف مريم، ترتاح على كتفي، لتهدئني، لتواسيني، لتقول لي يا أختي لا تستلمي للحزن، ابحثي عن شيء يشغل وقتك.

ابحثي؟ نعم قالها جدي منذ أمد بعيد، سأبحث، سأعود إلى الريحانية لألتقي بالرجل الحموي الأصيل، بالحاج ضاهر، لديه كنز من المعلومات التي لم يدونها أحد، نعم، سأسرع بالعودة إليه، لأنصت لحديثه، لأغوص عميقاً في لهجته حتى أصل إلى أيام الطهر والبراءة، أيام طفولتي في حماة، هذه اللهجة التي كان يتكلمها أساتذتي في المدرسة، وجيراننا وأصدقاء أبي، لهجة صارت تداوي جراح روحي، تأخذني من واقعي، تنسيني عدد سنوات عمري، لأنصت إلى من يتحدثها بشغف تلميذة تستمع إلى درس جديد، تحرص على حفظه من الشرح الأول.

* * *

خرجت من بيت مريم بعد ذهابها إلى عملها، ذاكرتي المشوشة لم تحفظ رقم الباص الذي سيوصلني إلى حيث تتوقف السيارات الذاهبة إلى الريحانية، وقتي واسع فارغ، نهاري صحراء تمتد مستديرة حولي تلتحم نهاياتها بخط الأفق، وما فيها نبتة عشب ولا شجرة ولا طريق مطروق، قررت السير ولتأخذني الدرب إلى حيث تأخذني، مشيت، ومشيت، أصيخ السمع إلى كلام المارة من حولي، اللغة العربية باللهجة السورية تطغى على اللغة التركية في هذه المدينة، الويل للنظام السوري ما الذي فعله بالشعب؟ صار عدد المهجرين أكثر ممن بقوا في البلاد، وماذا بعد؟

رتل من أشجار السرو المعمرة ينتصب واقفاً خلف سور كبير، له بوابة مفتوحة، توقفت أمامها لأنظر إلى ما وراء السور، إنها المقبرة، (المزارلك) هنا يرقد جثمان عمر البيطار، قائد الثورة ضد الفرنسيين في جبل صهيون، جبلنا، بعد انفصال عمر البيطار عن الشيخ عز الدين القسام، كان الاتفاق يقضي أن يحارب الشيخ عز الدين القسام في سورية وفلسطين، ويتجه عمر البيطار إلى تركيا ليمده بالذخيرة والسلاح، توفي عمر البيطار في انطاكية ودفن في مدافن الغرباء.

- السلام عليكم، صوت جاء من خلفي قريباً جداً مني، لم ألتفت، لست أنا المقصودة بالتأكيد.
- ماذا تفعلين هنا يا ابنة عمي؟ في الأمر التباس، في منطقتنا كل الناس يتخاطبون بكلمة ابن عمي وابنة عمي، في عبارات تشي بالمودة والاحترام وصلة القربى، لم يمهلني الرجل لألتفت، بل وقف أمامي، انه الحاج راغب، من قرية دفيل.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلا بابن العم، لا شيء أفعله، أتأمل ما أمامي، أليس عمر البيطار يرقد هنا؟
- نعم، إن قبره هنا، لكن الحكاية أطول وأشد تعقيداً مما تتصورين، لن نتحدث هنا في الشارع، تفضلي إلى بيتي، قريب جداً من هنا.
- أنتم مثلي تركتم الديار وهاجرتم إلى تركيا؟

لم يجب، مشى ومشيت خلفه، خطوات قليلة ووصلنا إلى بيته، البيت كبير، لكنه شديد الازدحام، زوجته وأبناؤه، أمه وزوجات أبنائه والأحفاد، وثلة من الشباب المجاهد، كانت أصوات نقاشهم ترتفع عالياً وتنسكب من فوق السور لتنداح في الشارع أمام البيت، متجاوزة أشجار الليمون المزروعة في الفناء، أدخلني إلى الغرفة التي تجلس فيها أمه، بعدما أعطى ما كان يحمله

من الأكياس لزوجته، لتبدأ مع من في البيت من النساء بإعداد طعام الغداء لكل هذا الحشد المتنوع من البشر.

سلمت على أمه وعلى نساء البيت، كلنا مهجرون، كلنا غرباء هنا، في البيت ضيوف كثر، وصلوا حديثا إلى هنا، بعدما هدمت بيوتهم واستشهد معظم شبابهم، نزلوا في هذا البيت ريثما ينتهي بحثهم عن سكن يناسبهم في أجرته ومساحته، العجوز شبه المقعدة لديها الكثير من الحكايات التي عاشتها خلال رحلة المهاجرة، لكنها متعبة مريضة، لا تستطيع الكلام، الواجب يقتضي أن أدخل المطبخ لأساعد النساء في إعداد الطعام، ولكن ليس من أجل أعمال المطابخ تركت بيتي وعملي، وقطعت الدرب سيرا على الأقدام في رحلة محفوفة بالمخاطر، استمرت ليلة كاملة ونصف نهار بين الغابات، جئت لأكون في قلب الثورة، أعمل لها ما يمكنني عمله، أجاهد بلساني وبقلمي، لذلك تركت العجوز على سريرها واستأذنت بالدخول إلى مجلس الرجال.

ما أن استقر مجلسي بين الرجال حتى زعقت عجلات سيارة توقفت أمام باب الدار، التفت الجالس قرب النافذة، وقام ليفتح الباب للقادم الجديد، استمر الرجال في حديثهم عن الثورة وأسبابها، عن أملهم بالنصر وعودة قريبة إلى الديار، ليعمروا ما تهدم، وليعيشوا حياة إنسانية لا ظلم فيها ولا ظالمين،

كلهم يغلي بالحماسة، كلهم يشتعل بالأمل، يستعيد حكايات التاريخ، يستعيدون تفاصيل ما جرى وما يجري، يستمدون من هذه الحكايات مزيدا من الحماس.

دخل راكب السيارة ومعه مرافقان، ملابس الرجال الثلاثة تبدو أنيقة باهظة الثمن، سبقتهم روائح عطورهم، انقطع الحديث من أجل السلام والترحيب، جلس الثلاثة، وابتدأ كبيرهم الكلام، كان مغتاظا، متذمراً، راح يلقي بالسباب والشتائم على النازحين الذين يصطفون طوابير طويلة لاستلام سلة غذائية، أو بعض قطع الملابس المستعملة، ويتلمس ربطة عنقه بين حين وآخر ليطمئن على سلامة وضعها، بحركات دلت بشكل فاضح على أنه ليس معتاداً على ارتداء مثل هذه الملابس، راح الجميع يتبادلون نظرات صفراء تنضح استهجاناً، وهو يشهد رفيقيه على كل جملة من كلامه، حضرته يعمل في الإغاثة، وهذه السيارة التي يتباهى بقيادتها تابعة للجمعية الإغاثية، سرحت بفكري بعيدا، تقتحم ذاكرتي حكاية كان يحكيها لنا العم علي شحيدة في سهراتنا حين كنا أطفالا، يحكي مقاطع منها وتكملها العمة فطوم، أخت جدي، رحمة الله عليها، تقول الحكاية : (أحكي لكم عن طاق ترن طاق "صخب الاقتتال" عن خروف محشو بالرقاق، أمسكت أذنه، سال دهنه، دعوت : اللهم قربني إليه وأبعدهم كلهم عنه.)

تركت مجلسهم ورجعت إلى غرفة العجوز، كانت صاحية مبتهجة، وكأن استدعاء الذكريات قد أنعشها، بل كأن عودة أم عبد الحليم من المطبخ وجلوسها إلى جانبها قد أحيا لديها الرغبة في الحديث، راحت تسرد سيرتها، وكأنما تحدث نفسها، كانت عيناها تنظران إلى الجدار المقابل لكنها لا ترى منه شيئاً، مستسلمة لتداعياتها كمثل تلميذة صغيرة حفظت درسها بطريقة (البصم) غفلت عن وجودي غفلت عن وجود أم عبد الحليم، وظلت تحكي حتى ضاقت أنفاسها وتحولت حشرجة، تلتها نوبة من السعال الجاف المخنوق، استدعت بها ابنها من الغرفة المجاورة، واستدعت النساء من المطبخ.

قالت العجوز: حين جاء الجيش الفرنسي استقبله رجال وأغوات قرى الساحل العلوي بالزغاريد والفرح، رقصت النساء أمامهم وأقيمت لهم الولائم، بينما سارع علي بدور برفع العلم الفرنسي فوق بناء بلدية صلنفة، ناكثا بمعاهدته مع أهلنا في جبل صهيون، والتي كانت تقتضي وقوف كل الطوائف في وجه الاحتلال الفرنسي، ردت إحدى النساء: وكذلك استقبل أولادهم وأحفادهم الفرس والروس، وقدموا لهم البلاد مجاناً.

لم يتسع الوقت للعجوز، كنت أرغب بالمزيد من بوحها، لكن نوبة السعال التي داهمتها فقطعت أنفاسها، واضطرتهم لنقلها إلى المستشفى، تلك النوبة

من السعال جعلت وجودي بينهم زائدا عن الحاجة، ودعتهم وخرجت أهيم على وجهي، لا أعرف، بل نسيت إلى أين كان قصدي حين خرجت من بيت مريم، تابعت السير في طريق (المزارلك)، ذاهلة عن نفسي، ذاهلة عن هدفي، أتلفت حولي فأجد العشرات من السوريين، نساء ورجالا وأطفالاً، مشيت حتى وجدت نفسي فوق جسر على نهر العاصي، تأملت ماءه أبحث فيه عن انعكاس صورة وجهي، الماء عكر لم يتمكن من إظهار ما أريد، أو لعل القانون الفيزيائي هو الذي يحكم هذه اللحظات (المتشابهان يتنافران) لعل وجهي أكثر اعتكاراً من مياه العاصي، على سطح الماء تطفو بعض الأشياء، لعلها طحالب أو جذور نباتات، منعني الخوف من التحديق لاستكشافها، ربما تكون رؤوساً وأطرافاً وبقايا جثث، جرفتها المياه من بلادي قطعت وألقيت في النهر، لا ندري قطعت بأيدي من؟ الثورة تطالب بالحرية وما أكثر أعداء الحق والحرية.

تابعت السير، السوق صار قريباً من موقعي، لابأس بشراء بعض الملابس الداخلية الرجالية، والبيجامات، ثمّ الذهاب إلى مستشفى الدولة، حيث يرقد الجرحى السوريون، ومعظمهم يحتاجها، النقود التي أرسلها لي الأستاذ علي نار، الرجل التركي الجليل، رئيس فرع رابطة الأدب الإسلامي في تركيا لم تنفد بعد.

وصلت المستشفى، الآن ليس وقت الزيارة، اتخذت مجلسا في الباحة المخصصة لانتظار الزوار، ولنزهة المرضى، عشرات الشباب يتمشون في الباحة، ويمشي قربهم مرافقوهم يحملون أكياس السيروم الموصولة بأوردتهم، شباب آخرون من مرافقي الجرحى، يجلسون على الكراسي، حديثهم الثائر الصاخب يتجاوز الطاولات والكراسي ويصل للشارع، تغلي الحماسة في دمائهم، ويرفرف الأمل بالنصر والحياة الكريمة فوق قسماتهم، وجلست أنا وحيدة صامتة، يحضر من عمق ذاكرتي عمي على شحيدة، يضحك بفمه الأدرد ووجه الأشقر المحمر، ويتابع حكايته:

(قلنا سنذهب للصيد والقنص، هات يا جدتي ما معك من النقود، أعطنا ثلاثة قروش، اثنان أكلهما الصدأ والثالث لا ينفع لشيْ، اشترينا ثلاث بندقيات، اثنتان معطلتان والثالثة لا تنفع بشيء، وجدنا ثلاث غزالات، اثنتان هربتا، والثالثة ما استفدنا منها بشيء) يضحك عمي علي شحيدة ضحكته الصافية الصاخبة، وأعود لنفسي، وضعت لرحلتي هذه ثلاثة أهداف، زيارة الحاج مسلم في دار من سبقتهم أطرافهم للجنة، وزيارة أم حسن، وكلاهما في الريحانية، وإعطاء هذه الملابس لمن يحتاجها، وكانت رحلتي مثل رحلة الصيد التي حكى عنها عمي، رحمة الله عليه.

سلمت الملابس التي اشتريتها لحسام المبيض، الذي خسر عظام فكه الأسفل في معركة الحفة وما زال يتلقى العلاج، وخرجت إلى الشارع أشعر بالفراغ، بالخواء، بالضياع، فتحت هاتفي أستعرض ما فيه من الأسماء، فوقع نظري على اسم زميل من أعضاء اتحاد الكتاب العرب، علمت أنه في تركيا، اتصلت به أشكو له همي، أخبرته بعجزي عن إيجاد بيت يؤويني، وأني بت أخجل من كرم مريم وأهلها، أجابني بأنه يحضّر مع مجموعة من الأدباء لإقامة مؤتمر في القاهرة، وقال لي تعالي معنا، في مصر ستتجاوزين حاجز اختلاف اللغة، ستجدين بسهولة بيتا تسكنينه، وسيرحبون بك.

اتخذت قراري على الفور، سأسافر إلى مصر، وداعا تركيا، وداعا مريم، وداعا للمستشفى والمخيمات، الوقت ما يزال مبكراً للعودة إلى بيت مريم، مشيت في الشارع على مهل، لن أركب الباص إلى بيت مريم، بل سأمشي، لأدرس هذا القرار المفاجئ، وأفكر في من يمكنني لقاءهم في مصر، قبل الآن بسنتين حصلت على جائزة في الرواية من شبكة (الألوكة) سأتصل بمكتبهم في السعودية، ثم، أنا عضو في رابطة الأدب الاسلامي، لابد أن لهذه الرابطة فرع في مصر، سأراسلهم أيضا، لا أعتقد أنني سوف أضيع في أية بقعة من بقاع الأرض، وسوف..

- السلام عليكم.. إلى أين أنت ذاهبة؟
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلا ابن عمي معاوية، سوف أسافر للإقامة في مصر.
- مصر؟ لماذا؟
- سأجد فيها بيتاً يؤويني، لا يعقل أن أعيش أكثر من هذا ضيفاً في منزل مريم.
- أرجو الله أن يحميك وييسر كل أمرك، تعالي نجلس لنحكي أكثر

جلسنا في شرفة أحد المطاعم المحيطة بالمستشفى، أرتج علي، ما عندي ما أقوله، وكذلك سكت معاوية، رن هاتفه الجوال، مكالمته طالت واستطالت، كلها أسئلة عن الشهداء والجرحى والمفقودين على جبهات القتال، مكالمة لم تعطه الجواب الذي يريده، بهدوء يقارب الذهول، أغلق هاتفه وأعاده إلى جيبه، سرح نظره في البعيد، نظرت إلى حيث ينظر، ثمة سحابة بيضاء تركض مسرعة في الفضاء، كومة من القطن الناعم المندوف، يتغير شكلها في كل لحظة، تختلط أطرافها، تتباعد وتتدانى، تتبعثر وتعود فتتجمع، ظل يراقبها حتى غابت خلف الشجرة الكبيرة، وظل بصر معاوية معلقا في الزرقة العميقة.

أعلم أن الأحداث تتزاحم في فكره ولا يعرف كيف يبدأ حديثه معي، أمه مازالت في القرية المحتلة والمقطعة الأوصال بحواجز أقامها جنود الأسد، تمضي يومها في معاقرة الصمت، أخوه استشهد في المعركة الأخيرة، زوج أخته فقد في المعركة ذاتها، ولم يعرف عنه أي خبر بعد، المعارك ما تزال مستمرة، اصابة معاوية في كتفه أقعدته عن المشاركة، لكنه مؤمن تمام الإيمان أن النصر سيكون من نصيب الثورة مهما طال بها الزمن.

قبل عودتي للبيت، مررت بمكتب التذاكر، حجزت تذكرة على الطائرة المسافرة إلى استنبول، وهناك ألتقي مع المسافرين للقاهرة، وأسافر معهم، ودعت مريم وأهلها، وذهبت في الفجر إلى المطار، لم يستوقفني شيء على الطريق، عقلي يدور في فراغات مجهولة، لا أعرف أين ستنتهي بي هذه الدرب، لكنني ماضية إلى قدري.

بعد المطار في اسطنبول ركبت قطار الأنفاق إلى الفندق الذي سأمضي فيه ليلتي، في القطار، رحت أحدق في القطار المقابل، عبر ظلمة النفق، وكان ركابه مثلي يحدقون باتجاه قطارنا، أرى ركاب القطار المقابل ينسحبون من أمام نظري ببطء فلا أعلم هل نحن من يتحرك أم هم؟ أي القطارين يمشي

الآن وأيهما المتوقف؟ هل تشبه حالة سورية الآن هذه الحالة؟ أم هي حالتي؟ لست أدري.

مشيت على سطح بحر متلاطم من الأفكار والرغبات، يدفعني الأمل في إيجاد بيت، والعيش في بلد لا يظلم فيه مهاجر، أتجاوز فيه حاجز اللغة مع السكان، تدفعني محبتي لمصر، والتي تراكمت من خلال برامج الإذاعة وأفلام ومسلسلات التلفزيون، ومن خلال كتب رائعة قرأتها قبل أن يتم حرقها خوفاً من أيدي المخابرات أثناء الثورة في ثمانينات القرن الماضي، ويشدني الندم على أشياء لم أكمل إنجازها، أبو علي في دار الذين سبقتهم أطرافهم إلى الجنة لم يكمل حديثه عن التاريخ، بي شغف شديد لمعرفة تفاصيل ما حصل في الثورة السابقة قبل ثلاثة عقود من الآن، إخوتي تناهى إلى علمي أنهم في تركيا ولم أعثر لهم على أثر، لكني سأعود، لابد أن أعود إلى هذه البلاد التي رأيت الإسلام قوة عظيمة ناهضة بين سكانها، وفي حكومتها، وجدت لديهم الإيمان والتقوى، وجدتهم متمسكين بالفطرة والطيبة، قلوبهم تفيض بالرحمة، سأعود.

تمثال الرجل الحزين في ساحة غازي عينتاب، وعدته بالعودة ولم أعد، لابد أنه غاضب مني، لابد أنه ينتظرني لأمسح دمعته، وليحكي لي الكثير

من الحكايات عن مرحلة من التاريخ كانت لنا فيها دولة إسلامية قوية، سأعود إليه، لا بد من عودة، سأجثو بين يديه وأسمع منه الحكايات التي لن ينطق بها، وسأقص عليه حكاياتي، وأتصالح معه، سينتظرني في مكانه، وكذلك الرسام في تلك الساحة، سأجلب له موضوعا جديراً بالخلود في لوحته، ولكن ليس الآن، بل حين أعود من مصر.

الطائرة تمشي بهدوء وثقل على أرض المطار، تسرع في مشيتها بالتدريج، ثم تركض، وتركض، ثم تقلع، يهوي قلبي بين أضلاعي حين إقلاعها، قلبي الذي تركت جزءا منه بين يدي الرجل الحزين، وأجزاءً في بيت مريم، سلاماً يا مريم، حين أذكر الوجه الجميل النقي لتركيا سأذكر مريم بالتأكيد، تبتعد الأرض عن نظري رويدا رويداً، تميل الطائرة، خط الأفق صار تحتها، غاب عن بصري، أنظر من النافذة فلا أرى سوى زرقة السماء وبعض السحب البيضاء، أنظر من النافذة اليمنى، لا سماء فيها، أرض فقط، تعاريج شاطئ البحر تبدو واضحة كأنما أشاهدها على الخارطة، بساط الغيم الناصع البياض يتماسك فيخفي وجه الأرض، تمضي الطائرة في مسارها، فتمد الأرض رأسها من بين فرجات الغيم، لتنظر إلي وأنا ريشة معلقة في الفضاء، تسائلني: إلى أين تذهبين؟ لمن تتركين ما وراءك؟ يغص قلبي بدمعة لا تستطيع الوصول إلى عيني، أختنق إذ أتذكر : على أرض قريبة من تركيا ودعت أبي، ومن هناك

جاءني صوته باكيا يشكو الجوع، أتراني سأسمع صوته مرة أخرى وأنا في مصر؟ هل كان قرب المسافة بيني وبينه سبباً في وصول صوته إلي؟ أم أنه تخاطر الأرواح؟ لك الله يا أبي، أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، وأدعو من كل قلبي أن يفرج هذه الكربة وينتشلك من غربتك وأنت في بيتك وأرضك.

بساط الغيم يبدو مهترئا الآن وقد فقد نصاعته، فتلونت بالرمادي والرمادي الداكن أجزاؤه المتباعدة، اختفى البساط، وظهرت نثرات قطن صغيرة تركض في الفضاء الأزرق، أحدق النظر.. القاهرة تمتد على اتساع كبير، القاهرة سبقتنا فانتصرت ثورتها واستقرت فيها حكومة منتخبة من أغلبية الشعب، أهو استقرار حقيقي؟ أحدّق النظر من نافذة الطائرة، أرى القاهرة يحزها في الوسط سكين كبير يقسمها نصفين، إنه نهر النيل... سلاماً يا مصر.. سلاماً يامصر..

* * *

تمّت

"ابتسام شاكوش"